رواية

حياة الأندلسي

كعم قبلتها

دار البسملة للنشر الإلكتروني

طعم قبلاتها

اسم الكتاب: طعم قبلتها

اسم الكاتب: حياة الأندلسي

نوع العمل: رواية

الرقم الدولي EBIN: 16-1-317-240512

الناشر: دار بسمة للنشر الإلكتروني

الطبعة الأولى: 2024م / 1445هـ

دار بسمة للنشر الإلكتروني

00212771814934

داربسمة للنشر الإلكتروني (المغرب)

Darbassma1@gmail.com

المملكة المغربية

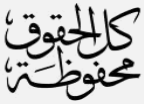

دار بسمة للنشر الإلكتروني تُقدم جميع خدمات النشر، ولا تتحمّل أي مسؤولية تجاه المحتوى، إذ إن الكاتب وحده هو المسؤول عن نتاج فكره.. كما لا يجوز بأيّ صورة نشر أو إعادة طبع أي جزء من هَذَا الكتاب أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله عَلَى أي نحو كَانَ، أو بأيّ طريقة سواء كَانَت إلكترونية أو بالتصوير أو خلاف ذلك، إلاّ بموافقة خطية من الناشر أو المؤلف. ©

طعم قبلتها

رواية

حياة الأندلسي

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى والدي الذي زرع فيّ حب الكتابة ...

إلى والدتي التي حرصت على تربيتي تربية حسنة....

إلى إخوتي وأخواتي...

إلى زوجي قرة عيني وسندي في الحياة...

إلى كل من دعمني وشجعني ....

أهدي إليهم جميعا هذا العمل....

حياة الأندلسي

ومن أرض الخيال كانت البداية

حياة، الطفلة المورسكية الشاردة في أرض الأحلام.. التائهة في صوتك.. تبحث عن شعاع أمل.. تنسج من خيوط الشمس جناحين، لتحلق بهما نحو الحقيقة.. قلبها كان مشبعًا بالثأر، لكنه الآن يشعر بالسلام.. أرخى يده.. وسلم أمره لله وحده.. فبدأ المطر يتساقط عليه بردًا وسلامًا.. أزالت ذاك اللثام من على وجهها للحظة، حتى تسمح للماء السماوي أن يخترق قلبها.. ويغسل منه كل معتدٍ ومحتل.. لكن صوتك.. كان لها الملاذ والأمان.. كان صوت الحقيقة.

ولدت في زمن آخر.. متحررة من كل التزام.. وحيدة.. وردة جديدة.. لبست فستانها الأبيض الربيعي.. وخرجت دون مظلة.. تحت زخات المطر.. تبللت من رأسها إلى أخمص قدميها.. ركضت تبحث عنه كالمجنونة.. كان هناك.. بقامته الطويلة.. وسمرته الفاتنة.. يبتسم لها.. ابتسمت له.. احتضنها طويلًا.. لا تحزني.. اطمئني.. أنت بأمان.. لم تشأ أن ترفع رأسها حتى لا... أغمضت عينيها فقط ودفنتها خجلًا.. وهي تصغي إلى أنفاسه المتلاحقة وضربات قلبه المتسارعة.. حاول رفع

ستار الخجل.. أفلتت يدها منه.. وركضت كطفلة لعوب.. وهو يلاحقها.. والمطر يغرقها.. في بحر الحب.

ثم توقفت فجأة.. وركزت عينيها في عينيه بنظرة شقية.. غنت له أغنية.. بقي مشدوهًا من صوتها.. تركته تحت سحر الموسيقى.. وفرت هاربة.. لأنها المحبوبة الحرة.. التي لا تستطيع أن تكون ملكًا للحب.

الفصل الأول

وفي ذاك الفضاء الأزرق كانت الشرارة الأولى

حياة

جلست على الرصيف.. أبكي وحدي.. فإذا به يقترب مني، نعم هو.. محمود درويش.. بصوته الرصين وابتسامته الهادئة.. قال لي:

"هوني عليك، لا شيء يستحق منك كل هذه المناحة.."

قلت له:

"كنت أظن الحياة حكاية من حكايات ديزني.. لم الحياة قاسية على الفراشات؟ ثم أخبرني أنت.. لم عرفتك متأخرًا؟ أليس هذا من سخرية القدر؟ لا يكتفي بطعني.. لكنه يقدمك لي بكل وقاحة وصفاقة.. لأتحسر وأقول.. ليس لي.. لذلك يا عزيزي درويش.. دعني أبكي وحيدة.. فعطفك يزيد حسرتي.. وأنت من أنت.. جبل وقور.. نوتة القرار الآمنة في آلة البيانو خاصتي.. رزين رزانة المجرة.. حكيم حكمة الكون.. ستأتي محظوظة من المحظوظات وتختطف تلك النوتة الجميلة.. لذا دعني أبكي وحدي حتى لا أفجع فيك.. لأني إن أحببتك.. فسأحكم على نفسي بالمؤبد يا سيدي.. وستصبح الدنيا دونك

جحيمًا.. وستغدو الأصوات عدا صوتك ضجيجًا.. فدعني يا سيدي.. دعني أبكي وحدي.."

"حاشا لله أن أتركك لدموعك تنهش روحك وتحرقها، سأكتب لك حروف الحب، حروفًا تكتب في القلب كي لا تمحى.. أكتب لك حروف حب بقبلة في شفتيك، كي أحس نفسي ثملًا بين يديك، أكتب لك مرة أخرى حروف حب، بقبلة أسرقها من خدك الوردي أبقيها سرًّا بين عيني وعينك".

"حبيبي..

سأحكي لك حكاياتي المجنونة من الآن فصاعدًا.. فاشهد مولد أديبتك وحبيبتك منذ هذه اللحظة.."

ابتسم لي بهدوئه المعتاد ورزانته الفاتنة.. مسح على رأسي بلطف.. وقال لي:

"رضي الله عنك يا طفلتي المدللة.. سأصغي إليك كل يوم.."

كانت تلك حواراتنا الأولى وخيالاتنا المرهفة على موقع التواصل الاجتماعي "فيسبوك".. انهمكت بعدها في كتابة رسالة لدرويشي قلت فيها:

"أيها الجمال المتمنع.. الساحر.. البعيد المنال.. المستعصي عن الفهم.. الثمين كالدر.. هل لي رشفة تروي روحي الظمأى؟ هل لي.. نظرة تسكر قلبي اليتيم.. أغرقني شعرًا في الغزل.. واحكِ لي حكايات المجانين وهم يخاطبون القمر.. واسترسل في سرد حماقات البشر حين تعييهم الوسائل وتتعبهم الحياة.. أيها القرار الحزين.. الرصين.. يا عواء الذئاب البيضاء في تلك الليالي المقمرة.. في جبال ثلجية تتراقص بلوراتها وانعكاس سنا القمر..

راقصني أيها الرجل الخفي.. أخرجني من قمقم النسيان.. أسمعني حروف اسمي كما لم أسمعها قط.. عطر جنبات روحي بأنفاس الحياة.. والحياة أنت.. وبك.. ومعك.

هبط الليل وبقيت وحدي أعد النجوم وأنتظر مقدمك يا أميري الوسيم.. لتؤنس وحدتي وتسأل عني، وتصغي لحكاياتي..

أنا أميرة أصيبت بلعنة النسيان.. نسيتها صديقاتها.. أهلها.. زوجها.. جيرانها.. أتراك ستخذلني كالبقية؟ وقد رحبت بحبك الجميل.. وأهديتك زهرة الربيع الأولى؟ فأين أنت؟ بدأت أدمن خطوطك الأولى التي ارتسمت بهدوء يشبه هدوءك على نار هادئة.. أنت ساحر عظيم تجيد فن السحر على أصوله.. وأنا تلميذة في شط دروس السحر.. فلا تتركني وحدي أناجي النجوم وحيدة.. قد نذرت أحرفي اليتيمة لك..

فاسقها بشيء من الشعر يا درويش.. فعلى قوافي شعرك بنيت قصر الحب.. ومن نفخة الروح التي نفختها.. عادت لكلماتي الروح.. أكاد أشعر بك.. وأخجل من قول كل الكلمات.. فلست سوى امرأة خجلى.. لا تجيد وصف كل شيء ولم تجرب مرة كشف الحجاب عن أحاديث الحب.. ستكتفي بالتلميح فقد ذاقت الشهد.. من... وقد فهمت وتعلمت الأبجديات الأولى".

جاءني رده في رسالة عاطفية جميلة:

"في بعدك يؤلف الشوق في قلبي أغنيات.. أحاور نفسي وأعاتبها كيف تحملت البعد عنك.. وأنت تبعثين بكلمات الود، وددت لو مشيت جنبك في شارع طويل، أحدثك عن الحب والشوق والعشق، وأمسك ذراعك وأقص عليك أجمل أخبار العزاب..

أنا محتاج لامرأة في عينيها أمل، لامرأة لو قالت كلامًا لحلت شفتاها شهدًا قبل التذوق..

وأنت تتكلمين، أسرق من شفتيك قبلة تنهي حيرتي فأنا أهواك".

فأجبته برسالة أخرى:

"دعوتني لجولة ليلية على الرصيف.. مصباح هناك يرتعش من البرد.. وفراش الليل يتراقص حوله..

تحاول تطويقي.. أبتعد خجلًا.. لم أتعود على ذلك.. يكفي أن نمضي معًا خطين متوازيين.. تقول كلمة فأنثرها خواطر.. سحرني صوتك.. بقيت صامتة أصغي إلى أغنياتك.. غنيت لي أم كلثوم.. شعرت لوهلة كأنك ملاكي الحارس.. أو كأنك أبي.. أو كأنك أخي..

صوتك يشعرني بالأمان.. صوتك يحمي فؤادي من التبدد في غابة النسيان.. صوتك ملاذي من التوهان.

ورغم خجلي.. إلا أنك فارس.. اقتحمت حواجزي كلها.. ضربت بها عرض الحائط.. وحضنت مخاوفي ووحدتي وألمي.. وغمرت كلي بحنان لم أعتده قط.. لِمَ جئت متأخرًا بعدما فاتني قطارك؟ تجيد الغزل.. تجيد رص الكلمات.. كيف لا وأنت درويش.. كيف لا وأنت جار القمر. وبدأت أسترسل في الكلام.. وأبوح ببعض أسراره.. ثم شيئًا فشيئًا تطلعت إلى عينيك الباسمتين.. فشعرت باطمئنان.. وبدأت الكلام.."

ورد عليَّ بكلام غزلي ذوبني:

"قبالة عينيك توقف زماني، واختزلت كل مسافات كلام الغزل.. أرمق في مقلتيك حظي الجميل، شفتاك رحيق زهرة أول فصل الربيع، قبالة عينيك أسترجع أنفاسي من أنفاسك، من أحضانها، من نظراتها".

حياة

"ما دمت أحلم فأنا حي.. لأن الموتى لا يحلمون".

كنت محكومة بقيود المجتمع، وأسلاك شائكة، ورقابة مشددة، كنت خائفة، مرتجفة، إلى أن وجدتك في تقاطعات هذا العالم الأزرق، ولا أدري يا درويش كيف وثقت فيك من بين الجميع، كيف حكيت لك همومي وأحزاني، كيف احتضنتها بصوتك الجميل..

شجعتني على الكلام، راودك فضول لتعرفني أكثر..

لكني لم أتمكن من كشف صوتي كما فعلت..

لأني أعلم أنك حين تسمعني، لن تستطيع سماع صوت غير صوتي..

لأني مثل القهوة..

أسبب الإدمان..

وبصراحة..

خشيت عليك أكثر من نفسي.. لم أرد أن تعشق تفاصيلي، لم أرد أن تتعذب في إدماني.. لم أرد أن تبيت الليل مكلومًا جريحًا وتقول، ليست لي وأنت تتنهد بحرقة.

أردتك أن تعرفني اسمًا ورسمًا وكلمات صادقة، حتى لا تلعن اليوم الذي أحببتني فيه ولم تطل منه إلا الحسرات..

والحسرات أعرفها جيدًا.. تلك التي تتجرعها حين يأتي قدرك الجميل في التوقيت الخطأ.

رقنت لي كلمات بلغة شعرية تحبس الأنفاس، قلت لي فيها:

"أنا محتاج أن أرقب الغروب في عينيك الفيروزيتين، أحب أن تتطلعي في قامتي كظل النخيل، وأكاد أقبل خدك وأتذكر أن هذا قد يفسد الود، وأعدل عن ذلك وأتابع رسم حكايات الحب والغزل المنزوع من القلب..

كم أهوى أن أقف قبالة عينيك، أحسب كم كلمة حب ستقولين، وكم نظرة تلهب مشاعري، وكم همسة تختلط بابتسامة عينيك".

آه يا درويش.. يا شاعر الفتاة الحزينة.. التي لن تلقاها أبدًا.. التي بينك وبينها بندقية.. ما عساي أفعل بهذا الفيض الجارف من الشعور.. أشعر بالتيه والضياع.. أشعر أني أود أن أعقد موعدًا مجنونًا معك.. أراك وتراني.. أبتسم لك وتبتسم لي.. أبادلك تذكارًا وتبادلني تذكارًا.. ثم يمضي كل لحال سبيله وقد طبع ذكرى جميلة في صاحبه.

درويش.. يا شاعرًا في بلاد الثلوج.. أتدري أني أعشق الثلج؟ خذني إلى بلاد الثلج يا درويش.. اصنع لي رجل ثلج.. اشترِ لي كرواسون دافئًا باللوز.. وحليبًا بالشوكولاتة.. ورواية طويلة تكفي صفحاتها لفصل الشتاء.. ومعطفًا أبيض ذا فراء سميك.. وقبعة من الصوف.. وجناحين.. لأحلق بهما في عالمك.. من أنت يا درويش؟ أعلم أني فتاة مجهولة.. تحاول العيش هنا باسم جديد.. في هذا الفضاء الفيسبوكي الأزرق.. وأنت تريد أن تكشف الأسرار والأستار.. لكن سحر الشعر في غموضه.. أليس كذلك يا شاعر الثلج؟

من أنت؟

ستقول نفس جوابي..

لكن..

كيف لي أن أجعلك بطل روايتي وأنا لا أعلم عنك.. إلا صوتًا.. وصورة ضبابية رأيتها لمدة ثوانٍ معدودة.. وروحًا مرحة.. وبرًّا بأم تنتظر أن تحقق أمنياتها فيك؟

من تكون يا درويش؟

درويش في الواقع.. بطلي الجميل.. كان دكتورًا موقرًا في جامعة مدينة ساحرة اسمها إدنبرة.. عاصمة إسكتلندا.. مدينة علمت منها اسمها فقط.. لأني كنت سيئة جدًّا في مكون الجغرافيا.. ولا أعرف شيئًا عن العالم.. لكن درويش سيجعلني أبحث رغمًا عني في "غوغل" عن معلومات حول هذه المدينة..

ودرويش بحار مغامر.. أبحر في المحيط.. واجه العواصف والرياح العاتية.. جذبته الحوريات لإغراقه مرات عديدة.. لكنه نجا من الغرق بأعجوبة في كل مرة..

درويش شاعر عاشق، له محبوبة نادرة في مخيلته.. يهيم بها عشقًا ويذوب في تفاصيلها ويدعو الله أن يؤدم بها يومًا.. فترسو سفينته بعد هذه الرحلة المضنية، وتسدل الأشرعة، حبيبة تعينه في رحلة النور.. يغوص في تفاصيلها، ويروي عطش أيامه من معينها، ويسد فراغ آدم في جنته بمؤنسته حواء..

استيقظ درويش صباحًا، توضأ وصلى الصبح، أعدَّ إفطارًا أنيقًا، زيتًا وزيتونًا، وخبزًا محمصًا، وعسلًا وزبدًا..

أنهى فطوره، حمل الصحون إلى المطبخ، نظف كل شيء، وأعاد ما تبقى منه في علب صغيرة، وأودعها الثلاجة، نظف يديه ومسحهما بمنشفة بنية غامقة..

ارتدى معطفه البني الطويل المصنوع من الكشمير الفاخر، وتعطر بعطر فرنسي أخَّاذ، مشط شعره بمشطه الأسود ذي الأسنان الدقيقة الحادة، ثم ألقى نظرة أخيرة على نفسه في المرآة ليتأكد أن كل شيء منظم ومتقَن.

بعدها توجه إلى الجامعة التي يدرس فيها، وألقى محاضرة غنية حول آليات تفعيل الاتفاقيات الدولية في مجال الدفاع المشترك.. ألقاها باللغة الإنجليزية وكان نطقه باهرًا لدرجة أنك تخاله إسكتلنديًّا إن أغمضت عينيك وأصغيت إلى صوته فقط.. كان المدرج عامرًا، والتفاعل على أشده، والأسئلة المتعطشة للمعرفة تتقاطر عليه من كل جانب، وبعض الفتيات الشقراوات كن يحضرن درسه للاستمتاع بصوته العميق فقط ووقفته الرزينة، ويستغرقن في جوه داخل أحلام اليقظة، ثم يخرجن سعيدات مخمورات.. حتى إن إحداهن في نهاية المحاضرة، توجهت نحوه وبدأت تسأله أسئلة عن الموضوع.. ثم تعمدت أن تتعثر وترتمي عليه..

احمرَّ خجلًا وأبعدها عنه برفق، وخرج بهدوء وهي تحبس ضحكتها وتتغامز مع صويحباتها.. كنت أرقب درويش من بعيد في آخر المدرج وأحاول تسجيل ما يمكن تسجيله في دفتر كبير.. رغم أني نسيت اللغة الإنجليزية تقريبًا إلا أني كنت مستمتعة بالمحاضرة.. رآني درويش وأنا خارجة من محاضرته.. لم أستطع رفع بصري نحوه.. خجلت بشدة.. لكن هالته القوية كانت طاغية على شعوري.. شعرت بنظراته وهالته تحميني من حزني ودمعتي ومخاوفي في هذه الحياة..

شعرت بالأمان.. وابتسمت.. وانصرفت إلى أوراقي وأقلامي لأكتب له وعنه حكاية صغيرة.

عاد درويش إلى مستودعه الصغير في مدينته الجميلة الرومنطيقية، وخلع تأنقه وأتعابه، توضأ وصلى ركيعات، وقرأ آيات من المصحف الشريف يطهر بها روحه..

أغلق المصحف.. وزاره طيفها الحزين، رفع يديه إلى السماء يدعو لها أن يحل عليها الأمن والسلام.. ثم اعتدل واقفًا ليعد عشاءً خفيفًا ويرتاح استعدادًا ليوم الجمعة المقدس.

هكذا تخيلت بطل روايتي درويش، حبيب القلب وأنيس الروح، الأمير النبيل.

الفصل الثاني

اللقاء الأول

درويش

"وقليل من الأرض يكفي لكي نلتقي، ويحل السلام".

اتصل الرقم مجددًا..

انبعث صوت هادئ لسيدة:

"السلام عليكم".

"وعليكم السلام".

"أنا حياة".

"من؟ حياة؟" فعلتها أيتها المجنونة".

"حصل ما حصل، جئت وتركت زوبعة ورائي، لا تسألني كيف ومتى.. لكنه حصل".

"على فكرة صوتك جميل جدًّا".

"حقًّا؟"

بقيت صامتًا أصغي لها ورنات صوتها تتسلل إلى شرايين دمي، أصابتني بخدر لذيذ.. وددت أن أعبئ صوتها في قارورة وأسمعه كلما انتابني حزن أو شعرت بوحشة..

كانت أول مرة تحدثني بصوتها على الهاتف.. كانت مفاجأة مزلزلة.. تحليقها نحو مدينتي دون سابق إنذار وفي خطوة مجنونة.. واتصالها بي رغم الحدود والقيود التي سطرتها لنفسها، ثم تجاوزتها كلها لأجلي..

لم أدرِ كيف سأتصرف.. كيف سأستقبلها.. كيف سأحدثها.. كيف ستمر محاضرتي في الجامعة بوجودها.. فقدت كل ذرات عقلي.. أيتها المجنونة.. تخطيت كل حدود العقل والمنطق.. وقفزت مرة واحدة من تطوان.. إلى إدنبرة.. من أنت؟ وماذا تريدين مني؟

كلامًا في الغزل؟

عناقًا؟

قبلة؟

سأجرب كل أنواع الخطاب معك يا مجنونتي التطوانية، ولن أخشى صدودك، سأكون فارس الميدان.. شئت أم أبيت..

كانت تتحدث كلامًا أسمع ربعه وتغيب عني باقي معالمه.. كنت مخدرًا تمامًا.. كنت هائمًا مشدوهًا غارقًا في هيام صوتها.. لم أخبرها بكل هذا.. لكنها جنت على نفسها.. هي الآن في ملعبي.. جاءت بنفسها.. لم أرد أن أفاجئها بكل ما يعتمل بداخلي.. احتفظت بأفكاري لنفسي وعاملتها بكل أدب واحترام حتى لا تعدل عن رأيها وتلغي لقاءها بي..

حياة

حدد مكان اللقاء بمكتبة عامة.. استجمعت قواي لأقابله، أعلم أني لن أجني سوى نظرة عابرة من لقائي معه.. هو لا يعلم ما الذي خسرته حتى أحظى بلقائه فقط.. لا أحب تذكر الألم.. فلأستجمع قواي ولأبتسم رغم كل شيء..

قصدت المكتبة، انشغلت بتمرير يدي على الأرفف الكثيرة المنمقة، انحنيت على رف سفلي يضم كتابًا في مبادئ تعليم البيانو، كأني عثرت على كنز ثمين، حين رفعت رأسي لآخذ الكتاب من أجل شرائه، اصطدمت دون أن أنتبه بشخص.. شعرت بحرج شديد.. رفعت بصري نحوه، فإذا هو عزيزي "درويش".

عقدت الدهشة لساني، غرقت في عينيه الحنونتين، ودمعت عيناي دونما سبب..

درويش

طفلة.. أنت.. حين ذرفت دموعك الغالية.. كانت تحكي كل شيء.. لم أشعر إلا وأنا أضمك وأمسح دموعك وأربت على رأسك.. وأنت تزدادين بكاءً.. كأن سيلًا جارفًا من الشعور انجرف حالما فتحت لها ذراعي..

انسحبت من بين ذراعي برقة، وقد احمرت وجنتاها خجلًا:

"مرحبًا بك حياة في مدينتك.. قبل أن نذهب للجامعة ما رأيك في أن نحتسي فنجان قهوة في المقهى المجاور؟"

قالت بعفوية وصدق:

"لكني لا أحب القهوة، تسبب لي ألمًا في معدتي رغم أن رائحتها شهية".

"ماذا تشربين إذن؟"

"شوكولاتة ساخنة".

"وهو كذلك، تفضلي سيدتي".

كانت تمشي على استحياء، وتحافظ على مسافة بيننا، كانت رغم جنونها ومغامرتها بالقدوم كل تلك المسافة، تعجز عن خوض مسافة طولها عدة أشبار.. رغم عناقي لها، إلا أنها لم تتخذ خطوة، لم تمسك ذراعي، لم تمسك يدي.. ستتعبني هذه الفتاة كثيرًا.. لكن لا بأس، نفسي طويل جدًّا، وهي هنا وأنا هنا، والجو ربيع والفصل بديع..

حياة

أخي الكبير.. يا من علمني أن أتصالح مع ذاتي وأمسح دموعي، وأسمح لنفسي ببعض الزلات الصغيرة، حتى لا أنهار مرة واحدة.. أنا ممتنة لوجودك في حياتي.. أعطيتني الأمل والقوة لأقف قصاد البحر، وأستمتع بزرقته، وأملأ روحي بالأمل.. لدي الكثير لأحكيه لك.. لكني أخشى أن أصير رواية مكتملة وتهجرني لتقرأ رواية جديدة.. كل يوم سأبثك ذرة من ذرات رمالي.. فليكن صبرك عليَّ طويلًا يا سيدي.

درويش

شربت فنجان الشوكولاتة الساخنة ببطء.. كانت مع كل رشفة تنتشي بمذاق الشوكولاتة..

آه منك يا وردتي الصغيرة.. ليتني فنجان الشوكولاتة.. لوهلة غرت عليك من الفنجان ومن الشوكولاتة ومن نفسي التي تحدق في تمثالك العاجي الماثل أمامي بكل هدوء وجمال.

بقيت صامتة كل تلك المدة، ثم قالت بلا مقدمات:

"متى موعد المحاضرة؟"

"المحاضرة؟ آه نعم المحاضرة.. دعك منها وارتاحي قليلًا".

"لكني لم آتِ لأرتاح.. راحتي في سماع المحاضرة".

"طيب كما تحبين، ستبدأ الساعة الواحدة ظهرًا".

"أوه! لم يتبقَ الكثير من الوقت سيدي".

"لا داعي للرسميات حياة، ناديني درويش.. درويش فقط".

".. د.. د.. درويش".

احمرت الوردة خجلًا وهبت واقفة لترافقني إلى الجامعة.. يا لها من راهبة تعبد الدراسة لحد الجنون.. آه منها ثم آه.. ألست أنا صاحب المحاضرة؟ حقًّا لا يمكن معرفة طريقة تفكير النساء.

الفصل الثالث

أرض الروح

قبل أسبوع..

حياة

أنا قادمة يا إسكتلندا!

جلست بمقعدي في الطائرة قرب النافذة. انبعث صوت من المكبرات يتمنى لنا رحلة طيران مريحة.. المشاهد البحرية تبدو مذهلة من الأعلى..

أمواج البحر ترتطم بصخور سوداء بالغة القدم وبالغة الارتفاع.

أنا قادمة يا إسكتلندا!

حطت الطائرة بمطار إدنبرة، وبدأت موسيقى إسكتلندية تعم أرجاء الفضاء بمزمار القربة الإسكتلندي الشهير.

حملت حقيبة السفر.. حجزت بفندق محترم، وارتميت في أحضان المدينة المبهجة بحدائقها المزهرة وبناياتها العريقة التاريخية ذات الطابع

الباروكي والقوطي.. توغلت في شوارعها وشعرت أني أسافر عبر الزمن نحو العصور الوسطى..

أخذتني قدماي نحو قلعة إدنبرة التي حجزت تذكرتها مسبقًا، وضعت يدي على جدرانها العتيقة.. أغمضت عيني ووضعت يدي الأخرى على قلبي لأصغي لحكاياتها وأصوات سكانها، ترى هل سيكون صوتي يا قلعة الحب ضمن ذاكرتك الخالدة؟

توجهت نحو شارع فيكتوريا، أبهجتني ألوانه، وأثارت حماستي فكرته المتمحورة حول تجسيد قصة هاري بوتر، كأن الشارع رواية ساحرة مجسدة تفيض شلالًا من زهور بنفسجية، تغسل روحي وتعيد إليها الحياة من جديد، والشعر، والجمال، والحب..

بعدها زرت شارع الأميرة، الذي يمتاز بطابعه العصري وتصطف على جنباته محالٌّ كثيرة وحديثة، لكنها لا تخلو من البنايات الأثرية الكبيرة والمساحات الخضراء والكراسي الخشبية المقابلة لأشجار تساقطت أوراقها وتشعبت أغصانها وتشابكت في مشهد آسر يحرك خيال الشعراء المغتربين ويلهمهم ليكتبوا قصائد مبللة بالدموع على تراب الوطن وأشجار الوطن.

جلست قليلًا تحت شجرة الكرز، وطفقت أتأمل أزهارها القليلة التي بدأت تبرعم باحتشام وتؤطر لوحة بديعة لمبنى أثري ذي قبة زمردية اللون.

لم آتِ هنا للسياحة، ولا للبحث عن حبيب، جئت لأحضر محاضرة لك، أيها الأستاذ الجميل.. بدافع الفضول ودافع السحر، ودافع المغامرة. وماذا بعد اللقاء؟ لا أدري.. لكني شعرت بشيء قوي يجذبني نحوك، قوي لدرجة أن أترك كل شيء ورائي وأشتري تذكرة سفر إلى إدنبرة، لأحضر محاضرة واحدة لك.. أليس هذا ضربًا من الجنون؟ ربما نعم، وربما لا..

رفعت هاتفي لأتصل بك، كان الخط مشغولًا، أخرجت من حقيبة يدي رواية أنشغل بها ريثما تجد اتصالي وتجيب..

درويش

"أنا الأمير الوحيد في قلاع التاريخ المنسية في انتظارك ".

درويش كان اسمًا مستعارًا خطر على بالها أن تسميني به، لأنها وجدتني أشارك بعضًا من أشعاره على صفحتي.. لم أكن شاعرًا قط، ولم أكتب في حياتي بيت شعر..

قبل أن أهاجر إلى إسكتلندا، كنت أعيش في مراكش، والدي كان محاميًا ووالدتي ربة بيت طيبة من عائلة مراكشية عريقة..

كان والدي رجلًا مستقيمًا، ذا يد بيضاء، يحارب الغش، والرشوة، ويقف مع المظلوم ويضرب على يد الظالم.. لم يقبل رشوة قط، ولم ينحز إلى أحد باسم العاطفة أو القرابة أو الجيرة..

يستيقظ باكرًا، يصلي الفجر في المسجد، ثم يعود إلى بيته، يقرأ ما تيسر من القرآن الكريم، ويعد إفطارًا بنفسه. وتلك عادة لم يتوانَ عنها. بعد أن يعود من جولاته ونزالاته للدفاع عن المظلومين، يعود منهك القوى. لكن بمجرد أن يدخل البيت، يلقي بمشاكله خارجًا، ويرسم

ابتسامة رضى على محياه.. يعانقني، ويقبل رأس والدتي ويحضنها حتى تستكين وتهدأ، ويكون بذلك قد أراحها من عناء يومها، وأراح نفسه من عناء النكد والشكوى.. تذهب والدتي بعد جرعة العناق سعيدة موردة الخدين، وتعد له فنجان القهوة الذي يحبه، وتقبل يديه كأنها ابنته البارة.

كنت متفوقًا في دراستي، أحصل على الرتبة الأولى في الصف دون عناء أو تعب، فقد قيل أني كنت عبقريًّا وموهوبًّا بالفطرة.

كنت كثير الحركة، ألعب مع أبناء درب "سنان" في المساء –وهو من أعرق دروب مدينة مراكش– ألعب بالكرة حتى تتمزق ملابسي ويكسوني الغبار وتنتهي الأمسية بغمري عنوة في الماء والصابون كأني كومة ملابس قذرة تحتاج فركًا جيدًا.. وكم كنت أكره حمام والدتي، فقد كانت تنزع جلدي نزعًا بكيس الحمام الخشن، وأنا أصرخ وأستغيث ولا رحيم ينقذني من جلسة التعذيب هذه.

درب "سنان" الذي حمل ذكرياتي وصولاتي وجولاتي لأثبت في مرحلة الشباب سطوتي على الحي، وأحمي أصحابي من غزوات المتمردين من حومات مجاورة، ودرب "سنان" يحمل في حيطانه مغامراتي الغرامية الأولى مع كل فتاة أختلي بها في الأزقة المظلمة لأسرق منها ضمة أو قبلة فتكتب كل فتاة سرقت منها لحظة، حرفينا الأول مع قلب كبير

يخترقه سهم على حيطان هذا الدرب.. حتى كدت أتسبب في فضيحة مع فتاة الجيران، أرادت استغلالي والزواج بي قسرًا بقصة ملفقة أنني سببت لها حملًا، وكانت بذلك تبحث عن مداراة مصيبتها بي، استدرجتني وأغوتني، لكني لم أقم معها علاقة، كانت قبلة واحدة فقط، كادت تفسد سمعة العائلة لولا مهارة والدي، وتبرئته لي بالأدلة الدامغة.. أما الفتاة وأهلها فقد اختفوا ولا يعلم أحد مصيرها.. تلك الحادثة جعلت والدي يفرض عليَّ الرجوع إلى البيت الساعة السابعة وإلا سيكون مصيري أن أبيت في الشارع مثل "الكلب" على حد تعبيره.

كانت الحياة تمضي في مسارها الطبيعي، تسلقت سلالم النجاح من الصفوف الابتدائية إلى الصفوف الإعدادية إلى الثانوية العامة، درست الأدب الإنجليزي لأتخصص في القانون، وأسير على خطى والدي الذي بث في جوانحي قيمًا إنسانية نبيلة أردت أن أدافع عنها، وأزرعها في أفئدة الناس وأرواحهم، عل ضمائرهم تستفيق من سباتها وغفلتها، ونعيش في عالم يسوده العدل وتحترَم فيه الحرية، ويطبعه النظام.

لم أنسَ ذاك اليوم. حين عاد والدي إلى البيت والعرق يتصبب من جبينه..

ألقى بنفسه على الأريكة، وضع يده على جبينه، وبقي مطرقًا لا ينبس ببنت شفة.. حاولت والدتي أن تفهم الموضوع، لكنه كان واجمًا

على غير عادته، صامتًا صمتًا رهيبًا.. إلى أن كسر الصمت صوت طرق عنيف للباب.. فتحت والدتي الباب بيدين مرتجفتين، اقتحم رجال الأمن البيت:

"سيد عادل، أنت رهن الاعتقال بتهمة تزوير أوراق خطيرة".

وقف والدي، دون أن يجيبهم، أسلم يده للشرطة، وتبعهم بصمت، وتركنا غارقين في مناحة.. أمي تضرب على صدرها وتندب وجهها، وأنا مصدوم مذهول تتقاذفني الوساوس والظنون..

اسودت الدنيا في عيني ولم أعد قادرًا على التمييز بين الحق والباطل.

في صباح اليوم التالي، اكتظت شوارع مراكش بالخبر، وامتلأت الصحف بعناوين صارخة..

"قضية تزوير وثائق سرية، فيها تهديد لأمن الدولة".

"المحامي "عادل" يتورط في قضية خيانة للوطن".

"عادل في ذمة التحقيق.. متقيسش بلادي"..

توقفت لوهلة عن التدوين حين لمع وميض في هاتفي.. وميض لم أدرِ أنه شرارة لزوبعة ستبعثر أوراقي كلها. وجدت مكالمة فائتة لرقم مجهول، سجلته في قصاصة ورق منتظرًا معاودة الاتصال.

بعد أسبوع..

حياة

"وإن لم تكن حجرًا يا حبيبي فكن قمرًا في منام الحبيبة ".

2024/01/16

السابعة صباحًا

الشتاء قارس، ومدينة إدنبرة غارقة في ضباب شفيف، وثلوج قليلة تجمعت على جنبات الطريق المرصوص بالحجارة.

استيقظت من النوم لأحتضن شعاع شمس جديدة تنبئ بيوم مليء بالجد والعمل..

رتبت سريري، أخذت حمامًا دافئًا، توضأت وصليت، ثم أعددت إفطاري المفضل، خبزًا مدهونًا بالجبن، وطماطم مقطعة على شكل شرائح، وزيتونًا أسود، مع كأس كبير من الشاي المنعنع.. وتناولت معها حبتين من فيتامينات معززة بزيت الأوميغا.

ارتديت معطفي الكشميري الأسود، حملت حقيبة كبيرة ودفاتر وأقلامًا وخرجت إلى الشارع أتملى في طلعة البنايات التاريخية، المخلصة لمقامها، ما طلعت شمس وما غربت..

ذهبت مشيًا على الأقدام، وقد استغرق مني الأمر 30 دقيقة لأصل إلى جامعة إدنبرة.

مررت بنادٍ رياضي لأتمرن قليلًا وأشحذ نشاطي وهمتي وتركيزي، ثم شربت شايًا عشبيًّا، وتوجهت نحو المكتبة التابعة لجامعة " Old collage campus" القابعة في قلب المدينة، ببنائها العريق والجميل على مدى عقود..

دفعت البوابة الزجاجية للمكتبة، ومررت على أروقتها بافتتان، ووقعت في غرامها كحب من أول نظرة.. اتخذت داخلها مقعدًا مريحًا، أخرجت أوراقي وأقلامي وبدأت في إنجاز عملي..

كانت لدي أبحاث كثيرة تشغل بالي، تدور حول القانون وعلاقته بالذكاء الاصطناعي، وحماية خصوصية الأفراد من الابتزاز الإلكتروني، المادي والعاطفي..

بعد إعدادي ورقتي البحثية، عرجت على حديقة بها ممشًى طويل، على جنباته أشجار عارية من أوراقها، تجردت من كل زيف وتصنُّع

ووقفت شامخة بحقيقتها الوحيدة.. أنها شجرة.. اكتست جنبات الممشى الخضراء بقليل من الثلوج المتناثرة كأنها أزهار بيضاء تساقطت من الجنة.

كان الهواء منعشًا رطبًا، والحياة تدعوني بقوة لأنطلق في أحضانها، وأستنشقها بملء رئتيَّ..

عدت إلى البيت، أعدت كتابة ورقتي البحثية على الحاسوب، ثم جهزت نفسي للقاء أميري "درويش".

كان في انتظاري.. بعد أن غبت عنه أسبوعًا كاملًا منذ زيارتي للمدينة، بحجة أني أحتاج وقتًا للتعود على الفضاء الجديد وحدي، لكن الحقيقة، أني انجذبت نحوه بشدة، فتراجعت خطوة لتأمل هذا الاجتياح الجديد، وتحليل عناصره، وتنظيم جزيئاته وذراته.

كان لقاؤنا الأول أشبه بصب الثلوج على صحراء قاحلة تحولت بعد دفقة السماء إلى رياض أبيض من النعيم النوراني الجميل.. قرأت في عينيه الكثير، وحتى لا أكون الفتاة المندفعة "سهلة المنال" تعللت أن سبب لقائي به الدراسة فقط..

لازالت الكثير من الأسئلة تدور في ذهنه.. لا أستطيع الإجابة عنها.. كيف لامرأة متزوجة أن تكسر كل الحدود والقيود وتحلق نحو "إدنبرة " وحدها؟ ما الذي حصل لعالمها؟ وأهلها ما موقفهم؟ لم يطرح

تلك الأسئلة.. تركني ألوذ بصمتي المعتاد.. لكنه غمرني بحنان كبير. احتضن خوفي، ربت على فؤادي، ابتسم لي ابتسامته الساحرة.. أغرقني في بحر حبه.. يكفيني أن أكون طالبته المجدة.. لا أريد أن أبعثر حياته الخاصة، يكفيني أن يكون بجانبي فقط..

أما ما حصل معي، فتلك حكاية أخرى.. لا أستطيع النظر إلى الوراء الآن.. سأقبل على الحياة الجديدة دون خوف أو ندم.. الحياة ثمينة، وما مضى، قد مضى..

ارتديت معطفي الأحمر، تأنقت قليلًا استعدادًا لموعدي معه.. نظرت إلى المرآة مطولًا، ابتسمت بثقة، وقلت:

"أنا قادمة يا درويش".

لا تزال صورته ماثلة أمامي وهو واقف في منصة المدرج بقامته الطويلة، وثقته العالية، يشرح للطلبة محاضرته حول القانون الدولي، بشكل مبسط مثير للإعجاب، موظفًا لغة الجسد، ومتدرجًا في الإتيان بأمثلة من الواقع. وقد طرح قضية "غزة" موضوعًا للنقاش. فتفاعل جل الطلبة مع الموضوع بحماسة بالغة، وأبدوا آراءهم حول موقف الدول العربية من القضية الفلسطينية، وموقف أمريكا من إسرائيل..

حاولت تدوين بعض النقاط المهمة.. لاحظت أن بعض الطالبات يفتحن حواسيبهن داخل المدرج وهن يتصفحن مواقع الموضة والأزياء، وبعض الطلبة يذهبون إلى دورة المياه دون طلب إذن الأستاذ.. الحرية مطلقة، لا يدرس أحد هنا قسرًا، يحضرون، يستمعون، يتفاعلون بالقدر الذي يريدونه..

و"درويش" ثابت لا يتزعزع، كالجبل الأشم.. يواصل شرح محاضرته بتسلسل منطقي ممنهج ومنظم..

ترى ما الذي تخفيه من أسرار يا أمير "إدنبرة"؟

الفصل الرابع

بوح

درويش

9:30 صباحًا

استيقظت متثاقلًا من سريري بعدما قضيت الليل بطوله أحدث "حياة" عن خواطري وومضات من ماضٍ غابر.. غسلت وجهي بماء بارد.. حضرت قهوة مركزة.. وبعد شرب كأس القهوة.. لم تكن لي رغبة في تناول الفطور. توجهت إلى دفتري أستأنف ما تركته من فضفضة..

قبل الفاجعة التي حلت بنا، وقبل زج والدي في السجن، كنت أتنعم بحياة مستقرة، وأرتاد الجامعة بانتظام، وأحصل دروسي بجد.. كانت لي شعبية كبيرة في صفوف الفتيات.. لم أكن كما يقولون "جذابًا لحد العذاب" لكني كنت مهذبًا في معاملة زميلاتي، لبقًا معهن، أنشدهن أشعارًا كثيرة لنزار قباني ومحمود درويش، وكن يتسابقن على مرافقتي في ممشى الجامعة ليتفاخرن أنهن يتمشين مع شاب طويل أسمر، أنيق، راقٍ على غير عادة أقرانه، كأنه أمير بريطاني تلقى قواعد صارمة في حسن السلوك، كما أنني لم أبخل عليهن يومًا بشرح المحاضرات وتبسيطها لهن.

ومن بينهن ما زلت أذكر رفيقتي " مارية".. كانت صبية عشرينية فاتنة، سمراء البشرة، ذات حسن غجري أخَّاذ.. كان الكثير من الشبان يتلهفون لالتفاتة منها.. لكنها كانت تملك كبرياء الأنثى، وغرور الحسناء.. وبشكل من الأشكال تقربت مني.. وتقول أني ساحر العينين، وتجلس قبالتي تحدق فيهما، فأبادلها النظرات ونبتسم، ثم أحثها على التركيز معي لأشرح لها ما لم تفهمه من المحاضرة..

وأحيانًا كانت ترافقني إلى البيت، حتى إن والدتي أعجبت بحسنها وظنت أنها العروس الموعودة، وكانت في كل مرة تدعو لنا وتقول: "يسر الله أمركما"، وفي كل مرة أشعر بالحرج الشديد، لم تحرك "مارية" رغبتي في الارتباط والزواج، ولم أكن وقتها أفكر في الموضوع.. كان تركيزي منصبًّا على النجاح في شعبة القانون، والارتقاء بمكانتي الاجتماعية.

طلبت من "مارية" أن تتوقف عن زيارتي في بيتنا، فتفهمت موقفي واكتفينا بجلسات الجامعة، وبعض النزهات خارج أسوارها في "كافتيريا " الجامعة والحديقة المجاورة..

لم أنوِ الزواج بها قط، لكن رفقتها كانت منعشة ودافئة، ويدها الناعمة الممسكة بيدي تبعث في أوصالي البهجة والنشاط..

ثم جاء الصيف، وقررت والدتي زيارة البادية حيث يعيش خالي الذي لم تره منذ مدة طويلة.. وهناك التقيت بـ"رقية" الفراشة الرقيقة،

شعاع الشمس الصافي، الجمال البدوي البريء، فأنشدتها لما تلاقت عيوننا أول مرة:

حسن الحضارة مجلوب بتطرية *** وفي البداوة حسن غير مجلوب

احمرت خجلًا، رغم أنها لم تفهم جيدًا معنى البيت الشعري، لكنها فهمت من نبرة صوتي ونظراتي المعجبة أني أغازلها.

كانت رقية، صبية شقراء، عيونها تميلان إلى زيتوني فاتح، وحمرة خدودها كأنها حمرة التفاح الناضج..

اشتعلت جوانحي بنار حبها يومًا بعد يوم، وزاد لهيب الصيف من لظى العشق.

كانت تسترق النظر إلي وراء أستار بهو الضيوف، وتسابق أمها لتقدم لي صينية الإفطار، وكأس الشاي، وخبزًا من عجينها، وطبخة من يدها..

وكلما أثنيت على جودة طبخها أو شكرتها، تلمع عيناها فرحًا، وتقفز كعصفور حديث العهد بالطيران..

ثم تواعدنا سرًّا تحت شجرة الأركان ذاك المساء.. بحت لها بمكنونات قلبي وأنا أشد على يديها بقوة وأعتصرهما لأبثهما كل أشواقي وعذاباتي..

كانت تذوب خجلًا من وقع كلماتي، وترتجف أوصالها كفراشة رقيقة هبت عليها أنفاس الصيف الحارة فكادت تحرقها.

بسطت كفيها على كفي، وقبلت راحة يديها بخشوع، وأنا أعدها أن أخطب ودها الصيف المقبل، وأخضب يديها بحناء السعد.

عدنا بعد صيف حار حارق.. وعادت الحياة إلى إيقاعها الرتيب، إلا قلبي الذي ظل هناك تحت شجرة الأركان.. وكم ليلة بتُّها أتقلب في فراشي أهب مفزوعًا من النوم وأنا ألهج باسمها: "رقية.. رقية".. بعد أن أكون مستغرقًا في حلم غريب، أكون فيه على صهوة جواد عربي أصيل، كلما حاولت ترويضه يلقي بي أرضًا بعد أن يجهدني بقفزه العنيف وعناده الشديد..

هكذا مرت عليَّ الليالي، أحلم بالحصان العنيد، وأستيقظ مفزوعًا أنادي على "رقية" والعرق يتصبب مني بغزارة، وقد حاولت تخفيف موجات الشوق الحارق بإرسال رسائل ورَقية لها، أبثها فيها حبي وشوقي ولهفتي.. ومما كتبته لها:

حبيبتي رقية..

أتعرفين حبي أنك سيطرت على كل تفكيري، أتعرفين حياتي أنك الوحيدة التي هزت كياني، وأطلقت بالحب لساني، وألهمت بالكتابة بناني؟ أتعلمين روحي أني أحلق في سماء السعادة عندما تكونين بجانبي.. أحاول عبثًا أن أنزوي عنك، لكني أعجز.. أحس بأني مهووس بك ألهج باسمك ليل نهار.. سرًّا وعلانية.. ما هذا الاجتياح الذي فاجأتني به؟؟ رفقًا بي يا روح قلبي فأنا أتدفق رومانسية، ولم أكن أعرف ذلك إلا بعد أن نطق قلبي بحبك.. رفقًا بي يا توأم روحي فأنا لا أقوى على كل هذا.. قلبي لا يحتمل فهو عبارة عن أوتار رقيقة تعزفين عليها أجمل الألحان وأطربها.. ألحان حب "درويش" لـ"رقية" و"رقية" لـ"درويش".. قلبي طوع بنانك.. إن شئت رقص على أنغامك، وإن شئت طرب لألحانك.. إنه يطرب لمجرد سماع صوتك، ويرقص فقط عندما يشم عبقك.. رفقًا بي يا أحن "رقية" ويا أحلى حبيبة.. لا أحتمل بعدك.. لا أحتمل فراقك.. لا أحتمل كل هذا.. أنا مستعمرتك، أنا ملك لك وحدك، اعملي بي ما شئت، فقط أرضعيني من شفتيك شهدًا حتى أظل وأظل أنبض بحبك وحبك فقط.

المخلص: "درويش".

اقتربت عطلة الصيف بعد سنة من الذهاب والإياب إلى الكلية، ورسائل كثيرة لعروسي الموعودة، إلى أن جاءني الخبر كالصاعقة..

صديق قديم لخالي، هاجر إلى الديار البلجيكية، يزوره مع ابنه، فيقع بصر الابن على "رقية"..

يقرر الابن أن يتزوج من ابنة البلد، ويقنع الصديق خالي بتزويج كريمته من ابنه المصون.

عمي أعطاه وعدًا وصمم على أن تهاجر "رقية" إلى أوروبا حتى تعيش حظها من السعادة. لم تنفع محاولات والدي في إقناع خالي أن "رقية" لـ"درويش" و"درويش" لـ"رقية" وقال له:

"يا السي العربي الولدان متحابان، لا تحرمهما من الوصال".

أجابه: "أنا أعطيته الكلمة ولن أتراجع عن قراري، أما لعب الدراري فلا أقبل به، كان عليه أن يخطبها مني رجلًا لرجل، وقد سبقه العريس، وأنا لا أتراجع عن كلمتي".

قالها هكذا بكل قسوة، وقلبي يعتصر ألمًا وأنا مطرق لا أرفع بصري نحوه ولا أنبس ببنت شفة.. أما "رقية" فيعلم الله كيف كان حالها، وكسرتها.. كيف ستعيش مع رجل لا تحبه، كيف ستتحمل قسوته، كيف ستطيق عيوبه..

أظلمت الدنيا في عيني، جمعت مسودات الرسائل التي كتبتها لها، خبأتها في صندوق وأقمت عليه مراسم الجنازة.. خالي الذي يدعي الانضباط والالتزام والورع والتقوى، كسر قلب حبيبين، والرسول عليه أفضل الصلاة والسلام يقول: "ما رأيت للمتحابين مثل النكاح".. والزواج لا يكون قسرًا على البنت، خالي المؤمن المتدين، غصب ابنته على الزواج حين اشتم رائحة الأورو وبريق أوروبا..

اشتعلت نار الغضب داخلي، قاطعت خالي، ولم أعد أزوره، غمرت نفسي بالدراسة، لساعات طويلة حتى أرهق عقلي وأشغله عن التفكير في "رقية"، وأمعنت في تمردي، ثرت على العادات والتقاليد والوعود الزائفة..

وفي إحدى ليالي هياجي وتمردي، تبعت أول فتاة ليل، لتكون أول امرأة أكشف أسرارها، لكن، ضد العادات والتقاليد، وضد نفسي وضد العالم، وخارج إطار الزواج، كما كنت أحلم مع "رقية" جرحي العميق ودمي النازف..

لم أكن أدري تلك الليلة، أكنت منتصرًا أم مهزومًا.. لكن ما علمته حقًّا، أن شيئًا بداخلي تحطم، ولم أعد ذاك الفتى المرتجف من كشف الأستار واختراق الحواجز.. شعرت بالمرارة والندم، مسحت دمعة حرَّى وتنهدت بعمق حين تذكرت "رقية".. وأن ليلتي الأولى

الفارغة من أية عاطفة كانت "رقية" أولى بها.. وكنت أولى بها.. وكنت محتاجًا للاستقرار والدفء وعيش حياة طبيعية في ظل أسرة.. لكن لا.. بعد "رقية" سأجعلهم يندمون جميعًا.. لا زواج.. لا أسرة.. لا شيء.. سأعيش حياتي كما اتفق..

وأمعنت في تمردي.. وخبرت أمورًا كثيرة، وبدأت أنضج وأهدأ، وكم مرة جلست فيها مع نفسي أقيم وضعي وأحاسب نفسي وأحثها ألا أسرف في هذا الوضع وأن أحاول بناء نفسي والاستقرار في حياتي..

أرسلني والدي إلى إسكتلندا لأستكمل دراستي القانونية هناك، خاصة أنه لمس فيَّ نبوغًا وذكاءً وموهبة، فتوسم فيَّ خيرًا، وكان ذاك أقل ما استطاع فعله ليخرجني من دوامة الحزن وفورة التمرد والغضب..

وهناك وجدت دنيا جديدة، تفتح لي ذراعيها وتعانق كل جرح وتجبر كل كسر..

كان يومي شاقًّا ومرهقًا، تريحني الكتابة وتخفف شعوري بالضغط، وكلما دوَّنت ذكرى سعيدة أو حزينة أنساها وأتجاوزها بسرعة.. وضعت القلم وأغلقت الدفتر.. شغلت موسيقى هادئة للاسترخاء وأنا أحتسي فنجان شاي بالأعشاب.. وقفزت إلى مخيلتي "حياة".. فتحت هاتفي أتفقد حسابها الفيسبوكي.. كل يوم تدوِّن منشورًا جميلًا، أطَّلع عليه وقت فراغي..

لكنها البارحة أحدثت في خلايا عقلي ما يشبه تأثير الكافيين على الدماغ، فبقيت مستيقظًا أسامرها وأحدثها، ويبدو أن تأثيري عليها كان مشابهًا.. كنا بحاجة إلى جرعة كافيين.. وكلانا يكمل نقصًا ما في الآخر.. أنا أشتاق للاستقرار، وهي تشتاق إلى الحرية.

15:17 مساءً

صارت عادة، عادة أدمنتها.. أزور صفحة جارتي الجديدة "حياة".. جارتي المجنونة التي تركت سرًّا كبيرًا وراءَها في تطوان، وجاءت إلى هنا لتقلق سكينتي وتحرك بداخلي مشاعر لها طعم مختلف..

فتحت صندوق رسائلي الإلكتروني فوجدتها أرسلت لي هذه الرسالة:

"قلبي مفطور، أبحث داخلي عن قطعة ناقصة..

جلست قبالة البحر أشكوه لواعجي، وعبرات حرَّى تأبى أن تسيل.. لأني لو حررتها سأتلاشى وأختفي.. الحياة إن تمنعت فمعناه أن حياة أخرى تنتظر، تخبئ في قعرها اللُّجِّيِّ لؤلؤًا يعوض كل ما طالني من الحرمان.

أنا "حياة"، والحياة نفسها تأبى أن تسلمني مفاتيحها وتتمنع عليَّ تمنُّع الصوفي في محرابه، وتمنُّع يوزرسيف في قصر سيده..

يوزرسيف.. طرقت بابه وأنشدته شعرًا بنفحات صوفية:

مشى..

خطواته من نور..

يوزرسيف..

تجلى كالقمر..

نثرت على ممشاه وردًا وعطور.

ركعت في محرابه

أصغي إلى الصلوات.

والقلب يخشع

أصغي إلى صوت الحبور

وضحكته أنقى من الماء الذي ينبع

تزغرد منه حبات إذا ينساب ما بين الصخور

أيوزرسيف امضِ هناك نحو النور

فباب الطهر مفتوح وقد حِكت الجناح هدية

فحلق نحو فردوس الحبور

وذق من خمرة ترويك بل أكثر

أعانق منك فرحة النصر المبين

تبعت خطاك..

صبرت فنلت دار الطهر

سمعت خطاك..

قرعت الباب..

فتحت الباب..

أضاءت جنتي بضياك

فقل بالله من سواك؟

أيا قمرًا يشع ضياك

ركعت على أعتاب محرابك

أيوزرسيف صل..

أريد سماع تلكم الصلوات

أيوزرسيف أرشدني إلى النور

فلا أرضى لبستاني سوى ورد ونور

وعلمني سجودًا للإله

وعلمني الحب..

حب الإله

وعلمني الحب..

كلام الله

وعلمني الحب

حبًّا يجمعنا في الله

حياة

"تنسى كأنك لم تكن".

هذا قدري يا درويش، عليَّ أن أرى ولا أقرب، أن أسمع وأنسى، أن أعرف وآخذ من المعارف الأبيض فقط دون أن أقرب الأسود.. لكن البيان علمني أن لحنًا دون لونين لا ينطق.. وأن البياض وحده لا ينتج إلا الصمت..

أين أنت يا درويش؟

تركتني لأفكاري تنهشني نهشًا.. أرغمت نفسي البارحة أن أنام مبكرًا حتى أنجز ما يفيد هذا اليوم..

تسألني مرارًا من أكون، وأجيبك مرارًا ثم تنساني بسرعة كقصيدتك: "تنسى كأنك لم تكن..."

أتدري يا درويش أني التحقت بمعهد الموسيقى منذ أن وطئت قدماي الديار الإسكتلندية، لأني أتنفس الموسيقى، ولا أعيش دونها..

أتدري يا درويش أن أستاذ الموسيقى البارحة أنَّبني لأني لم أتدرب على مقطوعتي، وأخبرني أني إن أردت أن أتقدم فعليَّ أن أحمل نفسي حملًا على التدرب حصة محددة كل يوم..

آه يا درويش..

لو يعلم الأستاذ ما أكابده بداخلي لربت عليَّ، ولجلس بجانبي يشاركني المناحة..

ومع ذلك عزمت أن أعود إلى آلتي بأصابع مرتجفة وقلب محطم إلى أجزاء كثيرة يستحيل جمعها مجددًا.

غرقت.. غرقت يا درويش ولا أدري كيف أطفو مجددًا..

عدت لآلة البيان، لأنها كل ما تبقى لي.. بعد أن تخليت عن الجميع، وتخلى عني الجميع.. وبدأت بعزف السطر الثالث من **Sonatina clement, op36**، الحركة الثانية.. وهي حركة عاطفية جدًّا.. أتعجل تعلمها حتى أهيم في نوتاتها.. لكنَّ.. بيني وبين إتقانها وُديانًا وتلالًا وهضابًا وجبالًا.. كلما حاولت تسلقها، تجرني كسرة القلب إلى التقوقع والانكماش، وتنحبس الدموع في عيني وأرفع يدي عن البيان.

لم أخرج من البيت اليوم.. اكتفيت بإطلالة سريعة من النافذة لأشيع بنظراتي الحياة خارجًا في شارع "إدنبرة" الذي اكتسته كآبة رمادية اللون، ودبت في أوصاله قشعريرة برد لم يجد معطفًا ليحتمي من لسعاتها..

درويش

"وأنت في طريقك للبحث عن حياة لا تنسَ أن تعيش".

22:30 ليلًا

شعرت أن حياة تعاني من مشكل ما.. اتصلت بها.. كانت الساعة متأخرة، وكان صوتها متعبًا. سألتها:

"أتمنى أن تكوني بخير".

"الحمد لله".

"رسالتك يا عزيزتي غارقة في الحزن، ألن تبوحي لي بمكنونات قلبك؟"

قالت بصوت مرتجف:

"هذا صعب، صعب جدًّا يا درويش".

"لا تخشي شيئًا، كلانا واحد، احكِي فقط".

ظلت حياة تقدم كلمة وتؤخر أخرى، ثم قررت أن تتحدث..

"أتعرف قصة المنصور بن أبي عامر؟"

"لا، لا أعرف".

"كان وزيرًا في مدينة الزهراء أيام عبد الرحمن الناصر سنة 323 هـ، وهي مدينة توجد قي غربي قرطبة.. أتدري كيف وصل إلى الوزارة؟"

"كيف؟"

"كان محمد بن أبي عامر ذا طموح كبير، وذا دهاء حادٍّ وفطنة متوقدة، كان يرى نفسه في منصب رفيع، هاجر إلى الأندلس ومعه أحلامه الكبيرة.. وهناك صار طالب علم يحضر مجالسها، ويفحم الشيوخ بنبوغه، ويفوقهم علمًا وفصاحة وبلاغة".

"وبعد؟"

"ذات يوم كان مع أصحابه، وكان أحدهم نصرانيًّا يتعلم العزف على آلة العود في دار المدنيات، فذهب معه ليكتشف المكان.. أتدري من وجد هناك؟"

"من؟"

"جارية حسناء تسمى "صبح"، تحاول الغناء وأستاذها منزعج منها يقول إن غناءها جسد بلا روح وورد بلا رائحة، فانزعجت وتوقفت عن الغناء، فحثها أستاذها على المواصلة، وقال إنها إن أجادت فسيُسر منها صاحب الجاه الذي تتدرب لتغني في مجلسه، وقد يبوّئها المكانة الرفيعة.. ولما رفعت بصرها رأت ابن أبي عامر فذهلت عن نفسها.. وبدأت الروح تغني.."

"يبدو أن القصة طويلة يا عزيزتي، ما رأيك أن نلتقي غدًا في كافيتريا الجامعة وقت الفسحة، تكملين لي البقية، نبرة صوتك متعبة".

"فعلًا أنا متعبة جدًّا".

"إذن ارتاحي، فراحتك أهم.. واسمحي لي أن أنشدك كلمات حب قبل أن تخلدي إلى النوم".

"أنا مصغية.. ".

آه يا "حياة".

"أقرأ في عينيك الجميلتين وأنا أقف أمامك الشموخ والجمال، وددت لو كنت حبيبتي، أخلصك من كل آثام الحب، وأمسك بيدك وأجعلك قمرًا يطلع من جديد..

تمنيت لو أنك تمررين يديك على خصلات شعري كالطفل.. انتهت قصص الحب وبدأت معك قصة أخرى.. كوني حبيبتي لأنسى فيك كل قصص الغرام التي مرت بين الشرق والغرب، كوني حبيبتي فهذا ليس عارًا.. دعيني أرافقك في سكون رموش عينيك حتى تنامي أيتها الرائعة.. أشتاق إلى تفاصيل وجهك المدور كالبدر، ونظرات عينيك التي تنساب مع ابتسامة.. لم يخذلني حدسي يومًا أنها ابتسامة الجمال.. نورت ليلتي وكنت كالبدر في منتصف الليل.. يا مهجة فؤادي، يرهقني البعد عنك، لكن الكلمات الجميلة تطوي المسافات".

ظلت حياة صامتة ثم جاءني ردها بصوت مرتجف:

"شكرًا لإصغائك وسعة صدرك وكلماتك الجميلة.. تصبح على خير".

"تصبحين على خير".

أعلم أنها ليست لي، وأنها ملك قصتها الخاصة، وأنها مكسورة الفؤاد.. وأنها أخذت لبي وكياني وسحرتني..

طار النوم من عيني، عدت إلى مذكرتي أسترجع ذكرياتي القديمة، وقد تركتها يوم فرَّق القدر بيني وبين "رقية"،

دفنت نفسي بين الكتب، وظللت عاكفًا على تحصيل العلوم القانونية، حتى اكتملت أدواتي، واتسعت مداركي، واحتدت بصيرتي.. وحلقت بعيدًا إلى الديار الإسكتلندية كي أحصل على شهادة الدكتوراة، وأشفى من جراح الفراق..

بعد عودتي إلى مراكش في عطلة رأس السنة، وتحديدًا سنة 2019، كنت أمني النفس أمنيات كثيرة.. أني سأبدأ صفحة جديدة في حياتي، أني سأحقق الكثير من الأهداف، وأنمي الكثير من المهارات، وأطالع الكثير من الكتب، لكن اعتقال والدي، أرداني في بئر عميق.. جعلني أسقط سقطة عنيفة على أرض صلبة شائكة..

لم يمر الكثير من الوقت، حتى توفي والدي كمدًا، دون أن نعرف ما ذنبه وما جنايته، مات صامتًا، رحل بهدوء، لكن رحيله أحدث دمارًا مدويًا في أرجاء نفسي..

غاب السند، غاب الأب، عانقت أمي بقوة كأني أريد أن أخبئها داخل قلبي الملتاع بحرقة الفقد، كأني أرجو بضمها ملأ الفراغ الرهيب الذي كاد ينهيني ويفنيني ويرديني صريع الألم والفجيعة..

أشد على يدها قبل أن يفنى قلبها ويختفي، أقول لها بعبرات مخنوقة:

"أنا رجل البيت يا تاج رأسي، أنا أبوك وأخوك وحبيبك.. لا تجزعي ولا تحزني يا أماه.. أبي ترك رجلًا.."

أبي.. أيُعقل أني لن أناديك بهذه الأحرف الثلاثة مرة أخرى؟ أيعقل أنك ذهبت هكذا هباءً؟ سجادتك البيضاء تشتاق لصلواتك، وأرضية البيت تشتاق إلى خطواتك المبجلة، وكأس الشاي، يشتاق إلى قبلاتك الدافئة..

وأمي.. آه ماذا أقول يا والدي.. أمي ماتت من القهر حين رحلت فجأة دون سابق إنذار.. لكنها تحيا لأجلي.. وفي قرارة نفسها تتعجل الرحيل لتلقاك هناك.. في جنان الخلد ورياض السعادة الأبدية.

أما أنا.. فقد شخت.. شخت يا والدي بعدك.. ظلموك يا أبي.. خونوك بغير وجه حق.. لكن ثق أني سآخذ حقك، سأضع أصفادًا من حديد ونار في يد كل من سحبك نحو هذا المصير البائس.. لم يكن بيدي حيلة وقتها، روحك لن تذهب هباءً، سآخذ حقك، وأبشرك في مرقدك الذي يفوح برائحة المسك، حتى ترقد بسلام..

أبي.. أبي.. أبي..

يراودني طيفك حتى لأكاد أجزم أنك لم تمت وأن الخبر كان كابوسًا فقط..

ثم أعود لرشدي، وأسأل الله أن يلهمني الصبر.. وبعد شهر.. استجمعت أشلائي، وعدت إلى إسكتلندا لأسقي بذورًا زرعتها داخلي، وأنا مصمم أن آخذ حقك بقوة القانون..

تعبت من الكتابة، أعدت الدفتر إلى درج في مكتبي، يا لها من ليلة طويلة.. أغالب زكامًا شديدًا، لكني لم أقدر أن أتجاهل صوت "حياة" وهي تحكي لي سبب حزنها العميق..

كانت لدي شكوك وفضول.. أردت أن أساندها، بداخلها فراشة رقيقة، أخاف عليها أن تحترق..

وجاء يوم اللقاء..

أقبلت حياة وعلامات التعب والسهر بادية في عينيها.. حضنتها مجددًا دون استئذان.. كانت تقاوم نهرًا من الدموع، وتكابد همًّا كبيرًا داخلها تخشى أن تبوح به..

أجلستها قبالتي، أمسكت يديها بلطف، وشجعتها على الكلام وأنا أركز بصري نحوها حتى أشعرها بالأمان..

واسترسلت في حكايتها الأندلسية، ففراشتي "حياة" تهيم في عشق الأندلس. قالت:

"توقفت حين رفعت صبح عينيها نحو شاب حسن الطلعة، ضاحك المبسم، فغردت بأغنية غنتها بروحها قائلة:

أعطيته ما سألا

حكمته لو عدلا

وهبته روحي فما

أدري به ما فعلا

قلبي به في شغل

لا مل ذاك الشغلا

كانت "حياة" تغني الأبيات بروحها وهي تتطلع بعينيها الصافيتين الكبيرتين نحوي.. ابتسمت.. وحلقت نحو عالمها الروحي الجميل أستمتع بقصتها الأندلسية، وأحاول أن أصل إلى مغزاها ونهايتها..

"صوتك ساحر عزيزتي".

"لا أجيد الغناء لكني اندمجت مع القصة.. المهم يا "درويش" أن صبح ظلت تكابد الحسرات بعد رحيل محمد بن أبي عامر، فقد شغفها حبًّا.. كأنه يوزرسيف".

"وبعد".

"شاءت الأقدار أن يشتغل محمد في كتابة الرسائل وترجمة الكتب على أعتاب قصر الزهراء، وهناك، طلب منه أحد غلمان القصر أن يكتب رسالة يمدح فيها أم ولي العهد الجديد بمناسبة إنجابه ليحظى الغلام بمكانة عندها فيرتقي في الوظيفة"..

جل الرجال هكذا يا درويش.. "وصوليون".

"لا ليسوا جميعًا وصوليين.. هناك استثناءات".

"على أيٍّ.. وصلت الرسالة إلى أم ولي العهد وحظية الخليفة "عبد الرحمن الناصر" التي كانت تحتل مكانة خاصة في قلبه.. الغادة الحسناء صبح.. أرأيت.. سخرية القدر".

"نعم هي كذلك".

"تأثرت صبح بأسلوب الرسالة.. ولامست كلماتها روحها وقلبها ورجت الخليفة أن يكون صاحب الرسالة مؤدب ولدها ولي العهد.. ويشاء القدر أن تلتقي من شغفها حبًّا.. وهي في ذمة رجل.. أرأيت..".

"سخرية القدر.. ".

"يلحظ محمد بن أبي عامر انجذاب صبح نحوه، فيستغل حبها ليعتلي المراتب تلو المراتب، حتى ينال ثقة صبح والخليفة ويعيَّن وزيرًا له.. وصبح كانت تعلم أنه يحب الكرسي، ومع ذلك، أعمى الحب بصيرتها، فيسرت له السبل، وقضت على مستقبل ولدها، كانت كلمتها مسموعة عند الخليفة، فقد كانت إلى جانب فتنتها وجمالها ذكية عذبة اللسان، سليمة المنطق، تأخذ بالعقل واللب.. لكنها خسرت نفسها وأعلت سلطان أبي عامر.. ألم أقل لك أن جل الرجال "وصوليون".

"أفهم من كلامك أنك صادفت رجلًا وصوليًّا كأبي عامر؟"

"هو ذاك.. ".

"أنا مصغٍ.. احكي وفرغي مكنونات قلبك حتى ترتاحي".

"كانت هناك طفلة ساذجة، تبحث عن الحب، وحين خذلها الجميع، وجدت شخصًا يدعي أنه يحبها.. انساقت نحوه بلا شعور، وكادت من ناره أن تحترق، لكنها انسحبت في آخر لحظة.. لقد تعرضت

لابتزاز عاطفي يا "درويش" من نصاب يتقن سرقة القلوب، وينظف يديه من آثار الجريمة بكل احترافية، فيظهر في دور الضحية، ويصورك في دور الظالم.."

"سبقني وبكى.. ضربني واشتكى.. وبعد".

"كان هذا الشخص مهووسًا بوالدي، فأبي كان وزيرًا سابقًا في وزارة التربية الوطنية والتعليم العالي.. ولكنه لا يتوسط لأحد وهو رجل مستقيم، يشتغل بهدوء وصمت.. الشاب طمع، وأراد أن يتسلق سلم المجد على حسابه".

"كان يقرأ منشوراتنا أنا وأبي منذ سنوات، وخطط تخطيطًا محكمًا ليصل إلى مبتغاه، فأحكم شباكه عليه وطرق باب قلبي من مدخل الشعر والنثر بلغة عربية فصيحة وأسلوب ساحر كما فعل محمد بن أبي عامر مع صبح..

كان طوال مدة مراقبته لنا يحلل شخصيتي، من خلال منشوراتي الفيسبوكية، ويدرس تفاصيلها بدقة وإحكام.. فهو خبيث جدًّا وسريع البديهة ومتمرس في تحليل عناصر الحبكة، فقد كان أستاذًا في مادة اللغة العربية وكاتبًا روائيًّا لم ينشر رواياته بعد".

"وبعد..."

"سألني يومًا عبر ماسنجر الفيسبوك عن حال والدي الذي لم ينشر رسائل منذ يومين، ورد على تعليق كتبته حول انعدام الصداقة في هذا الزمان.. ومن حينها بدأ سلسلة الاستدراج.."

"نعم وبعد.."

"كنت متزوجة كما تعرف ولي أبناء.. ورغم ذلك لم يتورع في إلقاء شباكه عليَّ، وكل مرة كنت أذكره أني متزوجة.. وأنه كما جاء في الكتاب المنزل من سورة الأحزاب: "ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه" الآية:4، وأني لا أستطيع أن أحبه، وأن توافقنا في الأفكار والميول ليس كافيًا لنحب بعضنا.. لكنه كان يعطي الحب مسميات تحت عنوان الأخوة، وأنا كنت دون شعور مسحورة بكلماته منساقة نحو صبيب أفكاره.. وهو يقودني رويدًا رويدًا ليحكم قبضته على قلبي، ويتأكد أني سأدمنه وأعبده..

أخبرته أن زوجي كان قاسيًا عليَّ، وحكيت له معاناتي معه ومن ذاك المنفذ خطط للدخول إلى عالمي بلا تذاكر ولا إذن ولا تصريح.."

"احكي لي أنا أيضًا معاناتك مع زوجك.."

"زوجي كان مريضًا بالنظام المفرط، يريد أن يرى كل شيء مرتبًا ومنظمًا تنظيمًا دقيقًا، ويتناول وجباته في وقتها المحدد.. وحين كنت أخل

بالنظام، كان يغضب غضبًا شديدًا.. كنت أحاول إرضاءه.. لكنه كان يكسرني كل مرة.. لا يعجبه العجب ولا الصيام في رجب".

"لا عليك.. دوام الحال من المحال وبعد؟"

"وبعد كنت أشعر أن قلبي يذبل رويدًا رويدًا، وأن طاقتي تنفذ، أنكمش ولا أبالي، حتى تسود الدنيا في عيني، ووالداي يقولان لي أنت اخترته، ولك منه أبناء، ويستمر العذاب".

"وبعدها؟"

بعدها تطورت الأمور وصار يصفعني لأتفه الأسباب، وكانت أمه تؤجج نار الصراع بيني وبينه.. حتى إنه صفعني يومًا وأنا أرضع ابني أمامها.. وهناك تحطم قلبي وكرهته، كرهته حقًّا.."

"للأسف وماذا حصل بعدها؟"

"حاولت التعايش معه، لأجل الأولاد، حاولت أن أعقد صداقة مع أخواته البنات، لكنهن لم يتقبلنني لأني لا أخدم والدتهن ولا أعينها في شغل البيت، وأنا لا أقدر على ذلك.. ومع ذلك كنت أدعوهم أحيانًا للغذاء أو العشاء وأحضر كل صنوف الطعام بيدي، وأملأ المائدة بما لذ وطاب، ثم أدعوهم جميعًا، حتى يرضى عني زوجي وقرة عيني، وما

إن ينتهي اليوم يقول لي "رضي الله عنك" ثم يعود لعادته القديمة، النكد والصراخ.."

توقفت "حياة" عن الكلام وقد اغرورقت عيناها بالدموع.. ربتُّ على يديها وقلت لها يكفي هذا اليوم. تكملين قصتك في المرة المقبلة..

هزت رأسها موافقة.. أمسكت بيدها، وأخذتها إلى ممشى الأشجار وأوصلتها إلى البيت، وقبل أن تصعد، عانقتها عناقًا طويلًا لأقدم لها بعض المواساة. وهناك أهرقت على صدري دموعًا حرَّى.. كانت محتبسة لسنوات في قلبها الجريح.. ربتُّ على رأسها الصغير.. مسحت دموعها وشيعتها حتى صعدت إلى غرفتها وودعتني من النافذة بابتسامة حزينة.

الفصل الخامس

طبق الكسكس

12:04

"أمير إدنبرة" هكذا كان يحلو لـ"حياة" أن تخاطبني، تحاول جاهدة الخروج من الشرنقة..

تحدثنا قليلًا، بدأت تقص عليَّ بعض التفاصيل، وثقت بي بسرعة، ربما لحاجتها الماسة إلى البوح، وربما لأنها تحت تأثير شخص خفي يحاول تخريب حياتها.. قررت أن أساعدها بكل ما أقدر عليه وأن أقف إلى جانبها.. حددنا موعدًا آخر لتكمل فيه قصتها.. ذهبت حياة للجامعة لتحضر محاضرات في القانون.. وأنا لم تكن عندي محاضرة اليوم، قررت أن أعد الغذاء.. قشرت الخضار، قطعتها قطعًا متساوية وأودعتها في "طاجين" اشتريته من مراكش في إحدى زياراتي.. انشغلت بالحديث مع "كارولين" صديقتي التي تسكن بالجوار، كانت ظريفة، وتحكي نكاتًا

مضحكة، مر الوقت سريعًا ونسيت أمر الغذاء حتى شممت رائحة الاحتراق.. احترق الطاجين.. يا للخيبة.. هُرعت إلى موقد الغاز أنقذ ما تبقى من خضار.. ثم، ألقيت بالوجبة كاملة في سلة المهملات، "عدت إلى كارولين" اقترحت عليها أن نتناول وجبة الغذاء خارج البيت..

حين أضيق ذرعًا بالمدينة، أهيم على وجهي، وأرتمي في أحضان الطبيعة، أنصب خيمة، أحضر قهوة على نار أضرمتها من أخشاب الغابة.. وأستغرق في التأمل والصمت حتى تنتظم أفكاري وأعود إلى صفائي الذهني.. أرفع بصري نحو السماء، في الصباح الباكر، أغمض عيني وأصغي إلى الأصوات.. خرير الماء في العين، حفيف أوراق الشجر، طنين نحلة تحوم حول الزهر، نباح كلب بعيد..

وحين أفتحهما، أجد نفسي وسط سحر أخَّاذ.. زهور من شتى الأشكال والألوان، طيور تتسابق على أكل فتات خبز تركه قروي طيب في غطاء طاجين مراكشي مقلوب ليكون صحنًا للطيور، جبال الأطلس البعيدة هناك، تعانق السماء برؤوسها الشامخة، شموخ روحها، تلك المحبوبة البعيدة المتمنعة..

فلاح يحرث أرضًا ذات تراب أحمر، رجل عجوز يقطف جلبانًا أخضر، بيديه السمراوين اللتين صارتا جزءًا من المشهد الطبيعي، وفجلًا أبيض زكيًّا برائحة التراب..

يأخذها إلى البيت ليعد بها طاجينًا شهيًّا بدجاج بلدي من حظيرته، وخضار الحقل التي جناها أثناء جولته.

أظل هائمًا على وجهي في سحرها.. ألثم شفتيها وأرتشف رحيق الحب من أنوارها حتى يهبط عليَّ الظلام، ليلف بأستاره ضجيج العالم، وضجيج نفسي.

أرقب الغروب وقد لون الشفق بلون ذهبي ساحر يحرك في النفس الشجن، ويذكرها بلحظة الوداع..

والوداع يعني أبي.. ورقية.. ونساءً عابرات غمرن وحدتي ببعض الأنس وقاسمنني بعضًا من الأزهار والأطايب.

اشتقت إلى الكسكس، كسكس أمي.. اشتقت إلى مراكش، وأحيائها الصاخبة، وقهقهات عمي "صالح" التي تتعالى نحو شباك بيتنا بلهجة مراكشي مرحة..

بعد وفاة والدي كنت أزور أمي بانتظام مرتين في السنة، عطلة رأس السنة وعطلة الصيف.. أحاول أن أقضي معها لحظات طيبة، وأن أغمرها بالحب والعطف علني أرد ذرة صغيرة من بحر الحنان الذي أنعمت به عليَّ..

أمازحها، أحملها على ظهري، وأركض بها في أرجاء البيت، وهي تضحك بشدة.. أحكي لها عن حنيني لخبزها وقهوتها فتقول لي دائمًا:

"تزوج وأرحنا.. كنت في صغرك تزعم أنك ستتزوج وتنجب أحد عشر طفلًا وتترك لي واحدًا، والآن؟"

"أنا ذاك الواحد ألا أكفيك؟".

وهنا يتكدر وجهها وتقول لي:

"أريد أن أرى أحفادي قبل أن أودع الدنيا".

"فأل الله ولا فألك يا أماه، سأتزوج لا تقلقي.."

"إن لم تفعل قريبًا فسأجرك عند مكتب العدول وأربطك بأول فتاة تمر من رأس الدرب".

أضحك وأقبل يدها، وأحثها على لبس جلبابها وآخذها إلى ساحة جامع الفنا، لنرفه عن نفسينا قليلًا..

وبينا نحن هناك تجذبني رائحة الشواء فأتوجه عند طباخ مشهور هناك كان طباخًا في القصر الملكي، وآكل فخذًا كاملًا من الضأن المشوي وحدي، وأشرب معه كأس شاي بأفضل أعشاب المنطقة..

ثم أشرب عصير البرتقال من إحدى العربات الأنيقة التي رصت عليها حبات البرتقال الناضجة بشكل منظم تنظيمًا هندسيًّا أنيقًا.. وبعدها آخذ أمي إلى إحدى ناقشات الحناء بالساحة لتزخرف يدها برسمة الخلخال السوسي الذي تحبه، ثم أشتري لها حليًّا ومجوهرات، وثيابا وأدوات منزلية، وتعود إلى البيت مبتهجة راضية وقد أمطرتني دعوات كثيرة، خاصة دعوات الزواج التي لا تقنط ولا تمل من تكرارها على مسامعي..

أنا الرجل الأربعيني.. رأيت وسمعت من الدنيا ما يراه الرجال في مئة عام، يمر الزمان بسرعة، وزهرة شبابي تتشبث بخيوطها الأخيرة، تبحث عن أرض الربيع لتحيا فيها زهرة أيامي..

فأين أنت؟ يا زهرة عمري؟ يا عصفورتي النادرة، يا درتي المكنونة، يا من سأبثها حبي وأشواقي وسر ضعفي.

أيعقل أن يمر عليَّ الزمان ولا ألقاك.. وأجلس وحيدًا على أحد مقاعد المقهى وأنا أنشد بيت شعر لابن الرومي:

محار الفتى شيخوخة أو منية *** ومرجوع وهاج المصابيح رمدد

اختطفيني قبل أن ينطفئ مصباحي يا زهرة عمري، فأنا أيل تائه في جبال إدنبرة الثلجية، أبحث عنك.

حياة

"خُذْ بيدي أيها المستحيل!

وغاب كما تتمنَّى الأساطيرُ".

09:02

أنقذني يا درويش من نفسي..

أنا عنيدة جدًّا، وخائفة جدًّا.. لا أدري من أين سأبدأ، ولا أريد أن أحكي سر قلبي حتى لا ينفرط عقد الرواية فتخبو الشرارة ويخفت العزم..

أعيش في جو رواية أخرى، كثيرة الألغاز لأن من ألفها يتقن شد انتباه القارئ وإثارة فضوله، وإبهاره..

كيف سأسمي ذلك، ليس حبًّا، الحب شيء آخر، لأن الحب ليس ما أراه وأسمعه في تلك الرواية، قد تقرأ في بعض فصولها شعرًا أو نثرًا يحبس الأنفاس.. لكني يا درويش لا أسلم مفاتيح قلبي لكلام الشعر

والنثر.. ولا أصدق الحب إلا إذا طرق الباب في إطار الشرع والقانون والوضوح والبذل والعطاء..

أعلم أني أحب الشعر وأهيم في معانيه، لكن قلبي لا يعدو أن يحب الشعر فقط، ويظل صاحبه شاعرًا فقط.. أبادله شعرًا بشعر، لا أقل ولا أكثر..

والكاتب يا درويش كان يعلم جيدًا أني مهووسة بالكلمات، أجن من الفضول حين تكثر الأسرار..

أعيش جو رواية صاحبها مجهول الهوية.. سلبت تفاصيلها عقلي وكياني، وجعلتني أرغب في إنهاء فصولها، وكشف أستارها دون أن تطالني خيوطها على أرض الواقع..

أعدك يا درويش أني وإن انجرفت قليلًا نحو كلام الشعر، وسلبت مني اعترافات لم أعنها بقلبي، تحت ضغط عاطفي وبإغواء متقن.. أعدك أني لن أسمح لأحد أن يسلب مني اعتراف الحب تحت أي غطاء وتحت أي مسمى..

دعني فقط أنهي فصول تلك الرواية لأشبع فضولي منها، وإن حدث وسولت لي نفسي نقلها لأرض الواقع.. أمسك بيدي وضمني بقوة.. بقوة يا درويش، وامنعني.. امنعني من الذهاب.

تعرضت للتعنيف، والإهانة.. وكان الغوص في عالم الأدب نوعًا من العزاء..

تحثني على ترميم بيت محطم، عامر بالصراخ والغضب والتذمر.. تعبت يا درويش، لكن لأجل عصفورين، تابعت العيش في منفاي ورضيت بالأصفاد والأغلال زمنًا.. ثم سافرت إليك..

بداخلي طفلة بسيطة، تفرح لقطعة شوكولاتة، وتضيء حياتها بباقة ورد، وتهيم لحد البكاء مع قصيدة شعر..

أهي لعنة؟ أم هي نعمة؟

فررت هاربة إلى مدينتك الساحرة، يا أمير إدنبرة، حتى أذوق طعم الحرية، وأفهم ذاتي أكثر.. وخلفت ورائي فوضى عارمة..

بنيت أحلامًا وأحلامًا في عشي الصغير على أساس خاطئ.. تحت وطأة الجور والظلم والاستعباد..

صبرت وصبرت.. استنفذت كل السبل والوسائل، ثم ثرت دفعة واحدة.. أحرقت كل شيء وفررت هاربة دون أن أتلفت ورائي.

أخبرني يا درويش، يا من خبرت قسوة الحياة وقسوة الفقد، وآلام الفراق وموائد العشاق.. أخبرني هل سأخلق من كل هذا الحطام الذي

خلفته ورائي جنة جديدة؟ أم أني سأظل لاجئة في أرضك أحتمي من العاشق المجنون، وأتوارى عن أنظار عشيرتي الغاضبة؟

الله يحبني يا درويش، لأنه أرسلك إليَّ لتنتشلني من دوامة ستدمر كل شيء جميل بداخلي، براءتي، ابتسامتي، شقاوتي، إقبالي على الحياة، حبي للطبيعة، حبي للموسيقى والرسم والغناء..

أحب الحياة يا درويش وأريد أن أعيشها بكل جوارحي.. منذ أن قررت أن أخوض معك رحلة التكاشف والاحتكام للضمير، بدأت البشارات تنهال عليَّ..

تلقيت البارحة قصيدة من أحد طلابي الذين خلفتهم ورائي، يشتاق فيها إلى دروسي، يقول فيها:

قف يا أُخَيَّ تحية لشقائق النعمان ... القاطنات بقلب كل زمانِ
الطاعنات فؤاد كل فتًى ... المذكيات مواقد النيرانِ
هاجرت تلك الدار دار أميرتي ... وفنيت شوقا لذت بالنسيانِ
لكنها في القلب ساكنة به ... حتى ولو هجرت بني الإنسانِ
أهرقت دمع القلب في أعتابها ... حتى تلاشت بالبكا أجفاني
لما تجلى النور من قسم الهدى ... ضخم الجدار وشاهق الأركانِ
تبعت خطاي النور ثم توقفت ... نحو الشفاء من الذي أعياني

البــاب مفتــوح يقــول أمرحبًــا ومضــيفه قمــر عظــيم الشــأنِ
قمــر مهيــب، والمهابــة منحــة قــد أعطيتهــا مــن لــدن رحمــنِ
قمــر عظــيم بحــر علــم وافــر في علمهــا نــور لكــل زمــانِ
أســتاذتي يا مــن يعــز فراقهــا فليعل قدرك يا صدى الإحسانِ

وأرسلت لي زميلات العمل سلامًا على جناح البريد الإلكتروني أكاد أبصر منه عيونهن وهن يترجينني أن أعود..

العالم كله يدعوني للعودة، وأنت يا درويش كنت الشرارة التي أذكت بداخلي الحنين إلى أرض الوطن.. لكني يا درويش أريد أن أعود منتصرة ظافرة، معززة مكرمة..

أنا الآن في المكتبة العامة، أتأمل فصلًا من فصول القانون، اقشعر له بدني وهز كل كياني.. كنت مغفلة، والقانون لا يحمي المغفلين.

أنهيت رقن الرسالة، ضغطت على زر الإرسال وأنا أترقب رد درويش..

اتصل بي هاتفيًّا:

"جميلتي، صباح الخير".

"صباح النور".

"أحببت كلماتك، سلمت أناملك".

"وأنت يا درويش كيف حالك؟"

"اشتقت إليك.."

"حقًّا؟"

"أجل.. تدرين شيئًا".

"قل.."

"أحن إلى طبق الكسكس".

"غالي والطلب رخيص.. سآتيك به في ظرف ساعة من الزمن".

"في انتظارك.."

"يومك سعيد يا درويشي".

"يومك أسعد يا حياتي".

فصلت الهاتف، خرجت مسرعة نحو المتجر، اشتريت لوازم الكسكس، وآلة كهربائية متوسطة الحجم لطهوه على البخار، وخضارًا طازجًا، وقطعة من لحم خروف ممتاز..

انكببت على الطهو بكل جوارحي، أتذوق المرق مرارًا وتكرارًا، وأضيف التوابل بنسب دقيقة، حتى اكتملت لوحتي الفنية، الطاجين كما يجب أن يكون.. لففته جيدًا بمنديل مخطط بالأبيض والأحمر، وأحكمت عقده، ثم توجهت إلى سكن درويش لأقدم له طبق "الكسكس".. فتح الباب، وأطل عليَّ وهو مقبل بقامته الطويلة وابتسامته الساحرة.. كان مرتديًا سريدة صوفية قشدية اللون، متناسقة مع باقي الملابس، لكنه نسي أن يمشط شعره.. مددت له طبق الكسكس.. أمسك يدي والطبق معًا.. كدت أوقعه من الحرج لولا تداركه الموقف.. أدخل الطبق إلى الداخل.. فكرت في الفرار.. وبينما تتقاذفني الأفكار، خرج درويش مسرعًا.. عانقني.. عانقني بقوة.. حتى انسكبت تلك الدموع اللعينة مجددًا.. هذا كان رده على الرسالة.. درويشي الرقيق الحنون.

الفصل السادس

رحيل

درويش

"جسد هنا، وقلب هناك، وبال بعيد جدًّا".

آمنت بقلم حياة.. لكنها كانت تعيش خوفًا من الآخر، كيف سينظر لها، كيف ستفهم أحرفها، كيف ستؤول كتاباتها.. دعوتها لجلسة مسائية الساعة السابعة وربع..

أستيقظ بحماس.. لا محاضرات، لا التزامات، الحرية وحدها تدعوني لأعيش يومًا مريحًا.. ارتديت بذلتي الرياضية السوداء، عبأت حقيبتي الرياضية بطقم نظيف ثم اندمجت كليًّا في التمرين..

اتصلت بي صديقتي النرويجية "ليندا" التقيتها في المقهى المقابل لبيتي. تحدثنا عن ذكريات الجامعة، وأحوالنا. "ليندا" محققة جنائية تعج بالقصص والأسرار وتحب مشاطرتي إياها، وتستشيرني في الكثير من القضايا المعقدة.. كانت تخبرني أنني عبقري، وأني أهل للثقة..

وردتني مكالمة من حياة فجأة، أرسلت لها رسالة نصية:

"ربع ساعة وأكون معك".

انتظرتني في ممشى الأشجار، وبيدها حقيبة سفر، وعلى خدها دمعة..

هالني منظرها، هالني استعدادها للرحيل، أمسكت حقيبتها، ودعوتها لفنجان قهوة..

جلسنا في المقهى، بقيت صامتة برهة من الزمن كعادتها، لا تتحدث إلا إذا حفزتها على الكلام:

"حياة، أنا مصغٍ لك، أنا معك، لا تخافي، العالم كله يعيش الفوضى، هوني عليك".

"قررت العودة يا درويش، لكنَّ جزءًا مني سيرغب في البقاء معك.."

"جيد يا حياة عودي، ونظمي أمورك، واحتضني أهلك، وأنا سأكون دائمًا بجانبك".

"لكنني خائفة ألا يتم تقبلي.. أن يتم نبذي.. أن أُنسى كوردة في الثلج.. أن.."

كانت تضع أحمر شفاه.. لم أمنع نفسي من محوه.. احمرت الوردة خجلًا وزادت جمالًا.. ورقة وسط كثبان الثلوج البيضاء..

"درويش.. درويش.. أين سرحت؟"

"في.. في الوردة الحمراء.. أقصد.. يا حياة الوردة تظل محفورة في الذاكرة لا تُنسى ولا تشيخ ولا تبلى".

"آمنت بقلمي، آمنت بكلماتي، فكيف لي أن أحررها من عقالها يا درويش؟"

"اكتبي لدرويش، انسي العالم، وانسي من كسر قلبك الجميل، اكتبي لي وحدي، وسوف أحررك".

"سأفعل، لكن كيف تكون الكتابة لدرويش حرية؟"

"لأني طائر حر، لا أرزح تحت أغلال الإبستيمولوجيا التي تستعبد عقول البشر، وتجعلهم ينظرون إلى الحياة بمنظارها، ويعتقدون أن الوجبة الجاهزة التي تقدمها لهم هي الحقيقة المطلقة، لأني أومن أن الإنسان عليه أن يكون صافي الذهن، ويسائل الحقائق بالعقل والمنطق ويأخذ منها ما يتناسب والعصر، ويترك منها ما يعرقل سير التطور والتقدم، تخيلي معي لو أن شخصًا يرزح تحت أغلال الإبستيمولوجيا الدينية، جاء إلى عصرنا الحديث، ورأى كيف يتواصل الناس عبر الإنترنت، ماذا سيقول؟ سيجزم قطعًا أن هذا ضرب من الكفر والمجون، وأن التواصل الإلكتروني ينافي الفطرة والطبيعة.. يا حياة، لو أن الإنسان استند إلى المرجعية الدينية أو

العادات أو التقاليد لما طور شيئًا، ولما اخترع الطائرات والقطارات والهواتف وغيرها، لكن هذا لا يعني أن ينسى الإنسان منشأه ومنبته وجذوره باسم التطور والإغراق في الإنتاج، التوازن بين كل هذه العناصر هو عين التطور وجوهر الحضارة".

"أدرك أن التطور يقتضي الحفاظ على الهوية، والاقتداء بالنموذج المتطور وأخذ ما يتلاءم مع خصوصياته وطبيعته وفكره، وأرفض من يغلقون الأبواب ويصمون الآذان عن مسيرة التطور ويقبعون في صندوق مغلق، وفي ورقة صفراء من أوراق التاريخ، حتى يصيروا كبركة ماء آسن، لأنها حبست نفسها في الجمود، ورفضت كل صوت، وكل رأي، وكل اجتهاد".

"ما زلت أذكر شعوري وأنا أركب في القطارات المعلقة باليابان MLX01 وهي تعمل بنظام التعليق الكهروديناميكي (EDS)، مكونة من خمس عربات تسير على خط اختبار ياناماشي الذي تم افتتاحه في سنة 1993 في مقاطعة ياناماشي. تم الانتهاء من صنعها ما بين سنة 1993 و2002، وهو يتسع لـ 78 شخصًا، وقد سجل أعلى سرعة للقطارات المغناطيسية والتي بلغت 581 كم / ساعة".

"رائع، شوقتني أن أحظى برحلة عبرها".

"هي تجربة مبهرة تحبس الأنفاس، كأنها تحدٍّ سافر لمفهوم الزمن التقليدي، كأنها سفر نحو المستقبل، هل تعتقدين يا حياة، أن من يعيش داخل صندوق، سيخترع أمورًا عبقرية كهذه؟ لن يفلح أبدًا. لذا يا حياة انسي تلك الفوضى الصغيرة، وكوني قوية واكتبي بكل جوارحك، عيشي الحياة التي تمنيتها داخل كلماتك، وسوف أكون ملاكك الحارس الذي يراقبك من بعيد ويبتسم، ومظلتك التي تحميك من زخات المطر السامة، فانطلقي وحلقي".

"أعدك يا درويش أني سأنسى، لكني تحت تهديد عدو خبيث، يرسل تهديداته بأسلوب ناعم، وأنا أقرأ ما بين السطور.. أنا أمام احتمالين، إما أني أواجه عدوًّا غير طبيعي، أو أن عدوي مجرد مجنون من مجانين الشعراء الذين ينضافون لقائمة "مجنون ليلى".

"أعطني حسابه، سأتكلف بأمره، وأنت امسحيه من قلبك على الأقل".

"أشكرك حقًّا يا درويش، بفضل الله ثم بمساعدتك، قطعت شوطًا كبيرًا في التعافي، لأنك أعطيتني مساحة بوح ما كنت لأستطيع تحقيقها لولا احترامك، ونبلك، ورجاحة عقلك".

"على الرحب والسعة عزيزتي، أتمنى لك التوفيق في رحلتك، لكن لا تنسي درويش، لأنه سيشتاق لك، وسينتظر قصصك على أحر من الجمر".

"سأكتب لك يا درويش، دائمًا، وأبدًا".

"دائمًا وأبدًا".. نعم هذه حياة، تبدو هادئة صامتة، لكن، ما إن تجد من يشجعها ويأخذ بيدها حتى تنطلق كالطوفان وتقول كلمات يخفق لها قلبي بشدة، "دائمًا وأبدًا".. حياة، الفراشة الرقيقة، الوردة الجورية التي تؤجج كل أنواع العواطف وأكثرها عمقًا، وتجعلني أخاف عليها من الذئاب البشرية.

الفصل السابع

أنا التائهة في لحن صوتك

حياة

أخشى من نفسي.. أخشى من صوتك حين تسمعني، كلمات ليست كالكلمات، في غابة بوحي أركض، وخيالك يتبعني، وأراه وأركض، ويراقصني، وأحرر نفسي منه، وأفر فيتبعني، كالظل يسير وخطوي.. وأخاف من الكلمات، وأنت جسور تسمعني، كلمات ليست كالكلمات، وأتعب من هربي، وأهوي، في بحر لجي، في كلماتك، ويراقصني طيفك يغرقني، في جو رومانسي، فلا تقطع شريان فؤادي، وتتركني..

كنت على موعد مع أهلي في العرائش، دعيت إلى حفل زفاف بعد إعراض طويل منهم، كنت خائفة، لا رغبة لي في الاحتفال، لكن درويش بكلماته الطيبة، نصحني أن أرتدي أجمل ثيابي، وأضع أحمر الشفاه، من أجله.. أعشق شخصية درويش المرحة، التي استقت جينات المرح من أرض مراكش الطيبة، أرادني أن أفرح وأعيش وأنفض غبار الحزن والكآبة، كنت سأكتفي بارتداء جلباب، دون وضع مساحيق التجميل.. لكني أردت كسر حاجز الكآبة وتجربة شيء مختلف، كنت

دائمًا أخاف التجمعات الكبيرة، لكني لسبب ما شعرت أني لا بُد أن أتحرر من هذا الخوف لأجل قلمي، ولأجل المخلص "درويش".

وصلت، إلى المطار، استقبلتني أسرتي الصغيرة بالأحضان، لم يحاسبني أحد على فراري نحو الديار الإسكتلندية، ربما أجلوا النقاش إلى ما بعد الحفل، فتلك قفزة مجنونة مني لم يتوقعها أحد، لكني قرأت في عيونهم الامتنان برجوعي، وشوقهم لبسماتي.

توجهنا نحو قاعة الحفل، رأيت العروس وقد أُسدل منديل شفاف من الدانتيل المذهب على وجهها الساطع كالشمس، و"النقاشة" تزخرف يديها بالحناء..

سلمت على والدة العروس وأخواتها وقدمت هديتي البسيطة، ثم اقتحمت مجلس النساء بلا مقدمات طللية، أصغيت، شاركت، ضحكت بملء فمي وكل جوارحي.. إحداهن، زوجها مقعد، ولها ابن رائع منه، تكافح بكل ما أوتيت من قوة لتحافظ على توازن أسرتها الصغيرة.. وحتى لا تترك زوجها وحده، إذ إنه يحتاج إلى رعاية خاصة، قررت أن تطهو ما لذ وطاب من الأطعمة الصحية، والحلويات الشهية، وتنشر صور منتوجاتها عبر "إنستغرام".. ما زال المشروع صغيرًا، وهي لا تستسلم ولا تقع ضحية الاكتئاب واليأس..

وأخرى، افتتحت روضة في الطابق السفلي من بيتها، لتعمل دون أن تبتعد عن أبنائها، كانت تعاني من إدمان العمل، ولا تتفرغ لنفسها إطلاقًا.. لكنها أخيرًا خرجت من الشرنقة..

وثالثة، كانت سعيدة لأنها تشعر أنها أم ناجحة، أرسلت ابنتها لدراسة الصيدلة بتركيا، وكانت زيارتها الأولى لهذه البلاد فتحًا عظيمًا لسيدة عاشت الفقر والمذلة والمعاناة من أهل الزوج.. لكنها تملك ابتسامة رائعة وقوة حديدية، قهرت بها كل العوائق والحواجز والعقبات، واستحقت وسام النجاح عن جدارة..

بعد حفل الحناء، وتناول طعام الغذاء، توجهت إلى الماشطة، لأرتب قليلًا من مظهري، فأحسنت وفادتي ودار بيننا نقاش مثير للاهتمام، فالماشطات ثرثارات بطبعهن، قالت لي:

"زوجي لا يحب أن يراني بمساحيق التجميل، لكني لا أحرم نفسي، وأصبغ وجهي كما يحلو لي، أتدرين أنه يحب رؤية النساء بالمكياج، ويكره أن يراني به".

"ربما لأنه يربط مساحيق التجميل بفئة معينة من النساء".

"لكني لا أسمح له أن يسيرني وفق أهوائه، أنا أحب التزين، وأفعل ما يريحني ويسعدني أولًا، لأن سعادتي ستعود عليه بالنفع".

"يظنون أن هذه الأمور البسيطة تفاهات، لكنها تفاصيل تخص النساء، فهن بطبيعتهن يملن إلى كل ما هو جميل وبراق وملون، لأنهن من يكسبن للأرض الجدباء معنًى ولونًا ورائحة".

"أخبريني، كيف تريدين أن يكون مظهرك؟"

"بسيطًا، بألوان ترابية".

حولت الماشطة وجهي إلى لوحة زيتية، تمسك إسفنجة، تخلط الأصباغ، توزعها، تناسق بين الألوان..

حين أنهت الماشطة حصة التلوين، خرجت من ورشة الرسم، تأملتني إحدى قريباتي قليلًا، وقالت لها:

"أحمر الشفاه.. اجعليه غامقًا".

ابتسمت الماشطة:

"قلت لك يا حياة، تجربة أشياء جديدة لن يسبب ضررًا، ثم إن الجميع يضع أحمر الشفاه الغامق في المناسبات الكبيرة، سيناسب مظهرك، ثقي بي".

أسلمت نفسي لها..

كل بنت في الوجود، تعشق أحمر الشفاه، كل بنت، تحب أن تتفتح كوردة جورية حمراء، وتنشر عبيرها ليقبل الفراش، يحوم حولها، يشم عطرها، يرتشف رحيقها..

فتصبغ على الشفاه، أحمر الشفاه.. تميل رأسها يمنة ويسرة، تحب وجهها على المرآة، تظن أنها أميرة الجمال، ووردة الورود، وأن كل عشاق الزمان سيهوي في غرامها..

أنهت الماشطة لمساتها الأخيرة.. تأملت وجهي العجيب في المرآة، وقلت لها:

"صرت الآن أشبه شخصية "ونزدي" من فلم أسرة آدمز، أو كأني ساحرة من حفل الهالويين".

ضحكت الماشطة، ثم أخذتني إلى حجرة بها زليج وأصيص، كأنها مجلس أندلسي، والتقطت لي بعض الصور..

قالت قريبتي أن المظهر الجديد أفضل، فسعدت بتلك الملاحظة.

ارتديت قفطاني الأحمر القاني، المطرز بزهور ذهبية، وتوجهت إلى قاعة العرس. ألقيت نظرة أخيرة على المرآة، رتبت طيات الثوب، وقفت بثقة، وهبطت الدرج بتؤدة، استقبلتني النكافات مع مدخل القاعة بالصلاة والسلام، وذاك دأبهن مع كل من حضر..

اتخذت لنفسي مقعدًا مع النسوة اللواتي انسجمت معن صباحًا..

بدأ الحفل بأغنية حزينة، تحكي حكاية بيت عامر بالبنات، واليوم دار البنات، صارت خالية الوفاض:

داري يا دار البنات *** البارح عامرة وليوم خوات

فاضت أدمعي لسماع الأغنية..

بعدها، غيرت الحضرة من مقام الأغنية إلى مقام الفرح والسرور، وقامت النسوة يرقصن ويتمايلن، وبعضهن يدعونني لمشاركتهن، وقد اعتدت دائمًا أن أتهرب حتى لا أكون أضحوكة لهن، لأني ببساطة لا أعرف الرقص..

لكنني قمت، وتقافزت كطفلة فرحة، على أنغام الموسيقى، ودرت دون توقف تعبيرًا عن الفرح، حتى أصبت بالدوار، كأني في مقام صوفي أدور حول مركز النور وأبحث عن معناي الضائع في نقطة ارتكاز الدوران..

ثم حانت لحظة الوداع وزمن الوصل بين حبيبين، وداع الأم، وموعد الحضن..

تساقطت من عيني العروس قطرات دمع غالبتها وهي تودع أمها حتى لا تصير مطرًا أسود من أثر الكحل.. وأسدلت سلهامًا أبيض على وجهها وتوجهت إلى قدرها..

في طريقي إلى بيت العائلة العرائشية، تراءى لي من زجاج نافذة السيارة ليلًا.. بحر..

بحر غارق في الظلمة، ذاب في سواد ليل سرمدي، حتى ظننت أن أيامي سواد كسواده، طلع القمر، لم يكتمل، وضياه شلال يداعب صفحة الماء الملون بالسواد، وينثر فيه بعضًا من جواهره المنيرة.. جواهره دمع المقل، دمعي، وقد شدني الشوق، وأعيتني الحيل، لما وضعت يدي على فؤادي صاح يبكي من ألم، ومن العدم، قد لاح طيفك، يمسح الآلام، ويضم قلبي المكلوم، ويرسم بين أسطره ابتسامة وأمل، أشعلت شمعًا من أمل، ورأيت في تلك المقل، ذاك الأمل، يراقص فوق موج البحر جواهر القمر.

درويش

"حريتي أن أكون كما لا يريدون لي أن أكون".

20:30

تلقيت البارحة رسالة من فراشتي "حياة" كانت معبقة بعطر الورد، محمومة بدموع القمر، تواصلت معها عبر "الماسنجر" فقد كان الوقت ليلًا وهي متعبة من وعثاء السفر، خلفت "حياتي" فراغًا كبيرًا في شوارع "إدنبرة"، وممشى الأشجار صار مرتبطًا في ذهني بوجهها الباكي تحت ضوء المصباح المرتعش في تلك الليلة الباردة، لم أشعر إلا وأنا أكتب لها هذه الرسالة:

جميلتي "حياة" قرأت ما كتبته أناملك الرقيقة، وأعجبني كثيرًا..

أشتاق لرؤية الفرحة في عينيك الجميلتين، أشتاق أن أعانقك طويلًا كي أحرر نفسي من كل محن الشوق، والخجل في عينيك يذيب من قلبي كل جليد الشوق. وأتهاوى بين ذراعيك حين ألمح خجل عيونك.

أسعى بين أحضانك كطفل متروك على هامش الطريق، وأبحث عن شيء مفقود في مشاعري.

هل لي بنظرة إليك وإلى شموخك وأنت ترفلين في ثيابك المخملية المطرزة؟

طيفك في خيالي، يجوب مخيلتي كل حين.

أرسلت الرسالة مع أغنية قريبة لقلبي لأم كلثوم "حيرت قلبي معاك".

حيرت قلبي معاك.. وانا بداري واخبي..

قل لي أعمل إيه وياك.. ولا أعمل إيه ويا قلبي..

بدي أشكي لك من نار حبي.. بدي أحكي لك ع اللي في قلبي..

وأقول لك ع اللي سهرني.. وأقول لك ع اللي بكَّاني..

واصور لك ضنى روحي.. وعزة نفسي مانعاني..

..

تلقيت منها ردًّا على رسالتي تقول فيها:

"أغمض عينيك، وسترى صورة في خيالك أيها الشاعر النبيل، لطفلة رسمتها بأناملك الساحرة وجعلت حروفها تنطق، ترى ماذا تخبئ لي يا درويش في جعبتك من دروس وعبر وحكايا؟ صارت كلماتك رواء لعطشها، تريد تعلم الكثير عن العالم، تلك الفراشة التي تعيش داخل شرنقة".

ثم أرسلت لي أغنية في تعبير عن خيبة كل أنثى حين يغازلها رجل، فترسم معه حياة كاملة بتفاصيلها المملة، ثم تخرج من ذاك الجو الشاعري، بوهم وكلمات، كأن لسان حالها يقول: "الأنثى لم تخلق لتلتقط الكلمات، الأنثى خُلقت لتنجب الحياة" هذا ما أرادت فراشتي المكسورة أن تبوح به عبر الأغنية:

يبني لي قصرًا من وهم
لا أسكن فيه، لا أسكن فيه سوى لحظات
وأعود، أعود لطاولتي
لا شيء معي
إلا كلمات
كلمات ليست كالكلمات

لا شيء معي

إلا كلمات

أثقل النوم أجفاني فودعت حياتي على موعد آخر لأطمئن على أحوالها وأتحدث إليها..

الفصل الثامن

وجع الأب

عدت إلى ملفاتي وأوراقي، وإلى ملف والدي رحمه الله..

كان أبي "عادل" المحامي المظلوم متهمًا في قضية معقدة أحاول فك شفرتها وإيجاد رأس الخيط، لحلها وإمساك المجرم وتبرئة والدي واسم عائلتي من تهمة الخيانة.

اتهم والدي بقضية ثقيلة، أنه سلم البوليزاريو، سرًّا من أسرار الدفاع الوطني، وأن مهنة المحاماة كانت ستارًا يختبئ فيه، ليلمع اسمه ويموه حقيقة أنه جاسوس خطير يهدد أمن الدولة..

سبق وذكرت أن أبي كان رجلًا مستقيمًا يستحيل أن تصدر عنه أفعال كهذه، وكانت له قناة على اليوتيوب يقوم فيها بتوعية الناس بالقضايا القانونية حتى لا يقعوا ضحايا المتلاعبين والمجرمين، لم يكن يعلم أنه، رغم فطنته وعلمه وحرصه، سيؤدي ثمن استقامته ودفاعه عن المظلومين، حياته، وسمعته، وسعادة أسرته.. ومن بين تلك المقاطع كان له مقطع نشره في فترة الوباء سنة 2020 يحكي فيه قصة "ليونور ويليامز" التي حوكمت بالسجن لمدة ثمان سنوات ونصف، من طرف الحكومة البريطانية.. حيث نشرت صورة لها وعليها كدمات وآثار ضرب، على مواقع التواصل الاجتماعي، وكتبت أنها تعرضت للضرب والاغتصاب من قبل مجموعة من الأشخاص المسلحين حسب زعمها، وأبرز المتهمين الذين اتهمتهم، شاب مسلم اسمه "محمد رمضان"، ادعت

أنه يتزعم عصابة تقوم بالأعمال الجنسية.. وبعدما لاحظت الصحافة البريطانية ازدياد أعمال الكراهية ضد المسلمين، بدأت تحقق بالحادثة، واكتشفت أن " ليونور وليامز" هي من ضربت نفسها، وكل اتهاماتها كانت باطلة، تندرج قانونيًّا تحت جرم الافتراء..

ثم عرف والدي جريمة الافتراء وشرحها شرحًا مبسطًا، لتوعية جمهوره وتبصرتهم بهذه الظاهرة، ليكونوا أكثر حرصًا ويقظة.

كررت المقطع مرارًا وتكرارًا، كأني أريد إخراج والدي من الشريط وعناقه عناق مشتاق لفقيد..

اتصلت بكل من كانت له صلة قرابة مع والدي، زملائه في المهنة، جيرانه، أصدقائه، استشرت أكبر دكاترة القانون هنا في إدنبرة، وخارج إدنبرة، تناقشت كثيرًا مع صديقتي "ليندا" التي تشتغل في المخابرات..

وشيئًا فشيئًا بدأت في تجميع خيوط القضية، لكني لم أنسَ "حياة "وأنا أشتغل على مِلف والدي، طلبت من "ليندا" إجراء فحص الخبرة على رقم هاتف الشخص المجهول الذي يلاحقها ويهدد استقرارها النفسي وسمعتها وراحة بالها، ورجوتها أن يتم الأمر بسرية تامة، دون أن تعرض "حياة" لمشاكل.. طلبت منها تحديدًا أن تمدني بثلاث معلومات، اسمه ونسبه، وطبيعة عمله، وافقت صديقتي إكرامًا لصداقتنا، وتعاطفًا مع قصة "حياة"..

اكتشفت بعد الكثير من البحث، أن أبي كان يعمل على قضية حساسة للغاية، أطرافها شبكة تهريب دولية، تعمل لمساعدة بعض قيادات عصابة البوليساريو، لاختطاف قاصرات من مخيمات تندوف وتهريبهن إلى عائلات إسبانية ثرية تقدم لهم الدعم المادي في المقابل.

كانت "سحابة" سحابة عابرة، أمطرت على سماء والدي شتاءً أسودَ، وأغرقته في قطران لزج لم يستطع أن ينتشل نفسه منه..

"سحابة" طفلة من عائلة صحراوية لاجئة في مخيمات تندوف، كانت تملك عينين واسعتين كبيرتين، ووجهًا أسمر صافيًا، وذاكرة قوية، وتتمتع بصحة جيدة كما وصفها والدي في إحدى مذكراته التي وجدتها. اشترتها عصابة تهرب القاصرات تحت غطاء أسرة إسبانية ثرية تريد تبني البنت، وبحكم أن والدي كان محاميًا مرموقًا له شهرة واسعة، ومهارة منقطعة النظير في حل أعتى القضايا تعقيدًا، فقد استعانت به المنظمة بشكل غير مباشر، وأرسلت له دعوة لإتمام إجراءات التبني..

في البداية ظن أنه إجراء روتيني عادي لا غبار عليه، لكنه لاحظ شيئًا غريبًا حين قرأ تعبيرات وجه أم "سحابة".. كانت تشي بالخوف والفزع، وعيونها تستغيث وتطلب النجدة.

اقتربت الأم لتصافحه وتركت في يده رسالة خفية وأوصالها ترتجف، كان مضمونها: "أنقذ "سحابة"، لن يتم تبنيها، سحابة ستضيع في دور الدعارة بإسبانيا. نحن تحت التهديد، نسلم بناتنا قسرًا ليستفيد الكبار".

رسالة احتفظ بها أبي "عادل" مرفقة مع المذكرة التي كان يدون فيها تفاصيل القضية..

هطلت دموعي فجأة دون أن أشعر بها، آه يا والدي، حنانك الزائد، وحسك العالي بالعدالة الاجتماعية جرك إلى مواجهة شبكة كانت أقوى وأعتى منك فقضت عليك بلمح البصر.

لم أتوصل لأي معلومات أخرى، لكن التهمة التي ألصقت لوالدي كانت كيدية، وهذا واضح، والعدو المتضرر من دفاع والدي عن "سحابة" منظمة البوليساريو، وشبكة التهريب الدولية.

فهمت الآن سبب صمت والدي، فهمت لِم كان يوصيني دائمًا بعدم نبش الأوراق القديمة.. أرادني أن أبتعد عن هذه الدوامة، ليحميني من نفسي المتشبعة بروح العدالة مثله، وأراد أن يحميني من غضب الانتقام له، انتقام من عدو أعتى وأقوى مني، أرادني أن أعيش حياة هادئة بعيدة عن مشاكل السياسة، أبعدني عنهم.. سُقط في يدي حقًّا.. عجزت عن فعل أي شيء.

اتصلت بي حياة:

"أهلًا درويش صباحك سعيد".

"صباح الخير، كيف حالك، كيف حالك أسرتك الصغيرة؟"

"بخير، أحاول جمع الشمل، أحاول أن أكون ربة بيت مسؤولة، أحاول أن أعتني ببيتي وأبنائي".

"جميل جدًّا، وماذا يفعل أبناؤك الآن؟"

"يرتاحون في عطلتهم ثم ينجزون واجباتهم المدرسية".

"نعم الواجبات المدرسية في العطلة.. جميل جدًّا، أتعلمين أن الحال في التعليم هنا يقضي الأطفال أوقاتًا ممتعة في اللعب واللهو والنزهات الممتعة، أما الدراسة فتقتصر على قصة ما قبل النوم للصغار، والمطالعة الحرة لمن يستطيعون القراءة بأنفسهم".

"أنا نفسي أومن بهذا، لولا كسرة القلب التي جعلتي لا أستطيع الإنتاج والعطاء.. كنت أكتب للأطفال الكثير من القصص، وابنتي الأولى تربت بالقصص، ولعبت معها بالكراكيز، ورسمت لها، وصممت لها مقاطع فيديو تساعدها على تعلم القراءة في سن مبكرة.. وزرت

الأطفال في مراكز ثقافية عدة لأحكي لهم قصصي، فقدت إيماني بنفسي بعد أن سرق قلبي مجهول لم أرَه على أرض الواقع قط".

"حياة عودي لرشدك، ابتعدي عنه، لك أسرتك الصغيرة، إن لم تركزي معها ستدمرين عالمك".

"أحاول التعافي من آثار حبه يا درويش، وقلبي الآن يعاني اليتم والضياع، قلبي يتيم محطم، خذل بالوعود الكاذبة".

"انسيه يا حياة، لك روح طفولية لا تتحمل عواقب انسياقك نحو حب خلقته في شرنقة من خيالك، لكنه حب لا يجوز أن يبذل لأي مخلوق، حبك الصافي النبيل لا يجوز إلا ليتعبد به للخالق، مشاعرك جارفة جياشة، تجعل كل من يمر بهالتها يتمنى أن يناله نصيب منها".

"لِم أنا؟ لِم يا درويش، قلبي يعتصر من الألم، لا يريد استيعاب الوضع".

"لأنك ببساطة يا "حياة" وقعت في الحب، الحب الجميل، الذي يجعل الإنسان مغشيًّا عليه، لا يقيم اعتبارًا لوضعه الاجتماعي ولا لعَلاقاته، يمكنه أن يقدم على قرارات مجنونة ليحظى بلحظة حب".

"ماذا سأفعل بهذا القلب الذي تسلل إليه حب ممنوع، لم ينل منه شيئًا إلا الحسرة والألم والوجع والرغبة في الموت؟"

"لا تذكري كلمة موت على لسانك مرة أخرى، أنت الحياة، أنت مهجة القلب، أنت الصبية التي يرغب العاشق في عناقها فلا يشبع ولا يقنع، إن مت يا حياة، من سيكتب لدرويش؟ ومن سيسأل عن درويش؟ ومن سيزور درويش؟"

"تقدرني حقًّا لهذه الدرجة؟ أم أنها مجرد كلمات؟ ترفع بها معنوياتي؟"

"بل أقدرك حقًّا، فابتهجي وابتسمي".

"لا تسل يا درويش عن الجهد الذي بذلته لإقناع أسرتي المتشددة بالقفزة التي قمت بها، وأنا التي كانت تخاف ركوب سيارة الأجرة لزيارة شاطئ المضيق القريب من تطوان".

"كيف أقنعتهم؟"

"أنا من حقي أن أسافر إلى أي مكان أرغب في السفر إليه، بوصي أو بدونه، وهربي ذلك لأن الوصي الذي يفترض أن يحميني تحت جناحه، كان أول من كسرني، وأذلني، وجرحني.. العبد يطعمه سيده، العبد يعطيه سيده بعض الملابس ليستر عورته، هل سمعت عن سيد يحب عبده؟ لم أكن بحاجة إلى طعام أو شراب أو كساء منه، مع العلم أنه لم يكن يشتري لي ملابس لائقة، كنت أشتريها بنفسي وبشق الأنفس،

كنت أحتاج منه إلى حب غير مشروط، إلى ابتسامة يستقبلني بها بعد عودته من العمل، إلى كلمة طيبة، إلى أن يسد النقص إن وجده بهدوء ويقدر تعبي بعد عودتي من العمل فلا يرهقني ولا يضغط عليَّ، أن يمسك بيدي ونتمشى على شاطئ البحر، أن يشتري لي باقة ورود، أن يعانقني كثيرًا حتى أختنق..

هربي لأن الوصي خنقني وسبَّب لي خللًا في توازني الأخلاقي، والعيش تحت جناح الوصي إن لم يكن بشروط يدمر كثيرًا.. أقول وصي لأن كلمة "زوج" صارت ثقيلة على قلبي كأنها سم زعاف، لكنه القدر يا درويش، و"لو" لا تزيد إلا الحسرات، لكن من سينجيني من ذاتي الثائرة التي تحرق الأخضر واليابس، ومن سيمسح دمعتي الحارة، وحده خالقي وربي ومولاي..

أخبرتهم أنني لم أتسبب في مشاكل، وأني لم أصاحب أحدًا، ولم أقم بحماقة ذات شأن، جل ما فعلته أني سافرت لأستنشق هواءً آخر وأجدد نشاطي وأنسى ما مر عليَّ من ظلم وجور واضطهاد.. وإن عدتم عدنا، وقلت لهم أيضًا، أنني قابلت دكتورًا راقيًا جدًّا، ساعدني كثيرًا ونصحني أن أعود ولا أمعن في التمرد، وأن عليهم أن يتعرفوا عليه، وأني سأزوره مرة ومرتين وثلاثًا وألف مرة، وأنه صار صديقي شاء من شاء وأبى من أبى.. نعم يا درويش هذا ما قلته لهم حرفيًّا، لك مكانة خاصة ورفيعة،

كمنزلة الأخ الناصح النصوح، والسند وقت الشدة، والأهم من ذلك، أنك قلت لي عبارة أخذت بمجامع لبي، قلت إنك آمنت بقلمي، فصرت أكتب لك بجنون يا درويش، عن أي شيء وكل شيء، فإياك أن تمل أحرفي يوما، ستحظى باستراحة جميلة حالما أنهي رسائلي كلها لك يا توأم الروح، يا مظلة أماني، يا سر ابتسامتي الخفية.. لكن تأكد يا درويش أني لن أقدم على حماقة أبدًا، كل ما أرجوه من الله أن يجبر خاطري ويمنحني حب العالم لأقدم للعالم كل الجمال الذي أملكه في أحرفي البسيطة".

"هكذا أريدك يا وردتي الجورية، قوية أبية، والحق أني أشتاق إليك، وأنتظر زيارتك بفارغ الصبر".

"أنا أيضًا أشتاق لك، وأعدك أنني حالما أرتب أموري، سأحمل حقيبة السفر وأحلق نحو أمير إدنبرة الساحر، الذي لا يمكن مقاومة سحره، الذي يجعل المرء يحب مدينة "إدنبرة" لأنه فيها، ولو أنه كان في جنوب القارة الإفريقية، لجعل الناس يحبون جنوب القارة الإفريقية فقط، لأنه فيها، وكم أتمنى أن تشرف خطوته الجليلة مدينة تطوان، لتنفض عنها غبار الجمود والعبوس وتبتسم لمقدم الساحر الجميل الذي سيملأها بهجة ومرحًا وحياة".

"لا تنسي نصائحي لك يا حياة، حاولي أن تعيدي ترتيب أمورك وستنبت السعادة من تلقاء نفسها في جنبات روحك، بأمور بسيطة جدًّا، واحذري من الفضاء الأزرق فهو مليء بالذئاب".

"هذا الفضاء متنفسي الوحيد، أحاول فيه التعبير عن ذاتي، والتحدث إلى الناس، لكن الغريب أن أحدهم رغم علمه أني متزوجة قالها مباشرة، أنه يريد إقامة علاقة مع متزوجة، تخيل؟ لهذه الدرجة؟ ينساق الرجال لأهوائهم؟"

"هذا الرجل غالبًا ما جرب هذا الأمر، فقام بتعميم نموذج المرأة المتزوجة التي عاشرها على جميع النساء المتزوجات اللواتي يصادفهن على الشبكة، لذلك لا تستغربي".

"في النهاية قمت بحظره".

"لا تنسي أن النساء أيضًا لسن بريئات، ويحاولن إغواء آدم على منصات التواصل الاجتماعي، ويتفنن في إرسال صورهن بوضعيات مثيرة، ويحاولن تنعيم أصواتهن، وما إن يسقط الرجل في شباكهن حتى يتم ابتزازه، بالتقاط صوره وطلب أموال بالمقابل حتى لا يفتضح أمره، تخيلي أن شخصية مرموقة جرته إحداهن لعلاقة حميمة افتراضية، وسجلت شريطًا له وهو في مشهد يندى له الجبين، كان يمكنه زيارة هذه الأفعى وقضاء حاجته في السر والكتمان، دون أن يسقط نفسه في

الفضيحة، والنساء انتقائيات في اختيار الرجال، لهن خارطة ذهنية تحدد من يصلح ومن لا يصلح تبعًا لغريزة الأنثى التي تحدد أفضل مخصب للبويضات، لتُنجب أفضل الأبناء، والمثال على ذلك في عالم الحيوان أن الكلبة حين يحين موسم التزاوج، يفرز جسمها طبيعيًّا رائحة مميزة، تجتذب كل كلاب المنطقة، ولا تقرب أحدًا منهم بل تنتظر وتراقب من سيكون الذكر المسيطر القوي، الذي سيفوز بالمعركة، ومن ثَم يفوز بها، هي غريزة موجودة عند الإنسان كما الحيوان، وإني لأجزم أن شخصين انجذبا بيولوجيًّا لبعضهما البعض، يستحيل أن يفترقا، وفيما معناه من حديث الرسول –صلى الله عليه وسلم–، أن المرأة تنكَح لجمالها ومالها ثم دينها، وهذا الترتيب لم يأتِ عبثًا. لا بد من انجذاب قوي بين الطرفين حتى تنجح العلاقة، وهذه غريزة فطرية جُبل الإنسان عليها".

"نعم كلامك صحيح، ونظرتك للأمور منطقية ومعقولة".

"كان بودي أن أسمع عنك المزيد لكن اتصالات كثيرة تلح عليَّ الآن، نكمل في المرة المقبلة –إن شاء الله–".

"الحديث معك شائق ومفيد لا يُشبَع منه، طاب يوم يا درويش".

"ويومك يا حياة".

الفصل التاسع

دميتي اليابانية

حياة

"أتعلمون ما هو الوجع؟

هو أن تصنع لك الحياة حياة أنت لا تريدها".

5:18

طار النوم من عيني يا درويش، فلُذت إلى كتابة رسالة لك أحكي لك فيها بعض الخواطر التي راودتني بعد حوارنا الأخير..

تذكرت نفسي أيام الإعدادي، وكانت مادتي المفضلة، العلوم الطبيعية، أستاذي كان يدرس بشكل رائع، أو قل إنني كنت معجبة به بشكل من الأشكال لم يستوعبه عقلي الصغير تمامًا، كنت أحضر الدرس قبل الحصة، وأتسابق لأعطي الجواب قبل البقية، كنت أحاول لفت انتباه أستاذي، لكن حصة "التوالد" كانت الحصة الوحيدة التي لم أشارك فيها، احمرت وجنتاي خجلًا ولُذت بالصمت، وفي نهاية تلك الحصة، أعطاني أستاذي أول توجيه في هذا المجال قائلًا:

"عدو العلم التكبر والخجل، أخبريني يا حياة ماذا ستفعلين؟ كيف ستتزوجين؟ كيف ستنجبين وأنت تكبحين نفسك عن تعلم ظاهرة بيولوجية طبيعية؟"

احمرت وجنتاي خجلًا مجددًا وقلت له:

"سأحاول المشاركة في الحصص المقبلة معك حق أستاذي".

وما زلت أذكر أن الأستاذ بعد حواره معي بهذا الشكل، شيء غريب جذبني نحوه لم أفهم كنهه بالتحديد حينها، وفي حصة الساعات الإضافية التي كان يقدمها في مؤسسة خاصة وكنت حريصة على حضورها، خرج بعد إنهاء الدرس وشرب من ماء حوض مزين بالزليج بيديه، طفقت أتأمل الأستاذ يشرب وقد خرج الجميع، انتبه لوجودي ونظرة استغراب تعلوهما، سألني:

"ألم تذهبي بعد؟"

"أردت أن أشرب فقط".

"تفضلي اشربي وعودي بسرعة إلى البيت لقد تأخرت".

قدمت للأستاذ كتيب الوثائق، وهو كتيب يتضمن صورًا يتم قصها ولصقها لتعزيز الدروس العلمية، أعطيته الكتيب، شربت الماء،

استعدته، ألقيت عليه السلام وأنا أشعر بالحرج.. وحين عدت إلى البيت، وجلست مع دفتر العلوم، وكتيب الوثائق، انبعثت منه رائحة عطرية، تركها الأستاذ على أوراقها، كان لها تأثير غريب، لم أصنفه ولم أفهمه، لكن ما أذكره أن تلك الرائحة كانت جميلة وساحرة.

تذكرت نفسي أيام الثانوي، كنت صارمة جدًّا، أمنع كل الشباب من الاقتراب، وأحرض صديقاتي على ذلك، إلى أن تغيرت مفاهيمي، حين اعترفت لي صديقتي أنها تحب ابن الطبيب، وأنه يحبها وأنهما بعد إنهاء الدراسة سيتزوجان، حينها تحركت بداخلي رغبة في أن أُحِبَّ وأُحَبَّ، وأعقد هدنة مع جنس الرجال، لكني لم أجد ذاك الحب آنذاك، حواراتي كانت مقتضبة جدًّا مع زملائي في القسم، ولم أجد فيهم من سيكون الحبيب الذي سأعيش معه رحلة العمر..

أهديت بطاقة صغيرة لتلميذ كان يدرس معي بالباكالوريا، كان وسيمًا وأسمر، تفننت في رسمها وتلوينها وأهديته إياها، وفي المقابل أعطاني مسطرة ملونة وابتسم لي ونصحني أن أكون أكثر انفتاحًا وأخرج من قوقعة الخجل، لكني بقيت داخل القوقعة مدة طويلة، لا أعرف عن الرجال شيئًا يُذكَر..

كان ابن الجيران ممن ظنت أني أحببته وأنه سيكون زوجًا لي، واعترفت بحبي له لصديقة تعرف أخته، فأخبرته بذلك، وقد كان رده

صادمًا، أخبريها أن تغض البصر.. أنا أحببته فقط، ما الذنب الذي اقترفته؟ شعرت بخيبة أمل، وأنني شخص غير مرغوب فيه وغير محبوب، ومرت سنوات، وتزوجت صديقتي بحبيب قلبها، و"حياة" لم تجد "حبيب القلب بعد".

ثم أحببت شابًّا شديد البياض رقيق التعامل جميل المُحيا، في مركز تكوين المعلمين، ظننت أنه سيكون زوجًا، لكنه لم يجد فيَّ ما يبحث عنه كزوجة ربما، تحدث إليَّ نادرًا، ثم رحل.. وكانت تلك خيبة أخرى..

ثم تعرفت على طالب طب مصري يقود فريقًا يصمم لعبة إستراتيجية، وانضممت للفريق لأرسم شخصيات اللعبة، وكان الطالب المصري أول مشروع حب تم إجهاضه قبل أن يولد، كان بيننا توافق فكري، وتقبُّل مبدئي للشكل، تواصلت مع أمه، وتواصل مع والدي يخطبني منه مبدئيًّا ريثما يسافر، تحمس في البداية، طلب مني أن أزور مصر مع والدي ليكون تعارفنا الأول هناك، لكنَّ والدَيَّ رفضا رفضًا باتًّا، وقد أخبرني أنه لا يملك حاليًّا حتى المال لتذاكر السفر، وكان شعوره بالعجز سبب هجرانه لي، ودَّعني وقال أنه لن ينساني أبدًا، وكانت تلك صدمة كبيرة سببت لي ألمًا عميقًا، إلى أن جاء ابن فقيح الحي، يخطبني، فوافقت دون تفكير، وقلت هذا على الأقل تحلى

بالشجاعة وخطبني، أعجبت به، وبمظهره، وكان بيننا توافق في عدة مناحٍ مبدئيًّا، لكن..

كان عيبه الكبير أنه عصبي لدرجة مفرطة ومؤذية وجارحة، ومبالغ فيها..

وكانت تلك خيبة رافقتني طول العمر.

بحثت عن الحب والحياة والزواج، فتزوجت من خيبة الأمل نفسها.

درويش

كل شيء جاهز، عزمت على السفر إلى كوكب اليابان، ولم أتزوج، أريد أن أظل حرًّا طليقًا، لا أريد أن أحطم قلب أية فتاة معي.. أريد أن أظل ذكرى جميلة فقط..

المرأة كائن عجيب، مرهفة الحس، متشابكة الخيوط، تهيم في الخيال، ترفض المنطق، ترى في الرجل كونَها كله، وعالمها، ولا تقبل منه أن يتيه عنها أو يضل عن طريقها، أو ينشغل بدنياه عنها، لأنه دنياها وقِبلتها.. لذلك، أنسحب قبل أن تصل كل أنثى إلى نقطة تراني فيها دنياها.. لا أحب الالتزام.. لكني لا أنكر أن في هذا الكوكب، طفلةً مدورة الوجه بيضاء البشرة، بعينين بنيتين عميقتين، وشعر مصفف بعناية، وغرة جميلة تكاد تحجب عينيها.. كأنها دمية يابانية.. لا أنكر أن هذه الطفلة.. هي الوحيدة التي سأسلمها مفاتيح قلبي ولُبي، وسأجعلها قبلتي، ومعبودتي، وسكني.. تلك الفاتنة الصغيرة التي انطبعت صورتها بعمق في ذاكرتي فهي لا تُمحى، ذاك اليوم ما زال حاضرًا كأنه أمس.. سافرنا مع عائلتي للتمتع بسحر المدينة وشواطئها الذهبية، تجولنا في

أحد شوارع قلب المدينة الجديدة بتطوان، وهناك رأيتها من بعيد.. طفلة جميلة تمسك ذراع والدها، تجر كمه بقوة وهي ترنو بعينيها نحو واجهة زجاجية لمتجر ألعاب، عُرضت فيها دمية بيضاء تشبهها كثيرًا.. كنت حينها طفلًا في العاشرة، قادني الفضول، تركت أسرتي مشغولة في محل لبيع الملابس، واقتربت من الصبية مسافة تكفي لأسمع حوارها مع والدها، وكانت تتحدث معه باللغة العربية الفصحى، كأنها خرجت لتوها من حكاية خرافية تُحكى للأطفال قبل النوم، قالت:

"أبي، اشترِ لي هذه الدمية، انظر إلى عينيها، انظر إلى وجهها، إنها صديقتي، سأسميها ديانا، سأكون أسعد طفلة في العالم إن اشتريتها لي".

"هيا يا بنتي لا وقت لديَّ الآن.. نناقش الفكرة في البيت".

"لكن.. لكن.. أنا أحببتها.. أريد أن أحصل عليها الآن، قبل أن يشتريها أحد غيري.."

"ليس الآن.. قلت لك أنا مستعجل، ربما في المرة المقبلة".

أطرقت الصبية برأسها الصغير، وذرفت دموعًا غزيرة، وهي ممسكة بيد والدها، صامتة، لا تصرخ ولا تنوح..

ركضت نحو أمي أخبرها أني سأجول في شوارع المدينة وأعود، فأذنت لي، ركضت بسرعة، حتى لا تغيب الطفلة عن ناظري، تتبعت

أثرها، وعرفت المسكن الذي تقطن فيه.. لم يكن بعيدًا جدًّا عن محل اللعب.. ثم عدت إلى محل الألعاب، واشتريت الدمية بكل مدخراتي، وعدت مجددًا إلى حيث تسكن الصبية. طرقت الباب وقلبي يدق بقوة كأن مطرقة القاضي تدق عليَّ بنقرات منتظمة وقوية.. فتحت أمها الباب وهي تنظر إليَّ باستغراب شديد، وأنا ممسك بصندوق الدمية "ديانا" كما أسمتها الصبية، وكانت تختبئ وراء فستان أمها الطويل وترمقني بنظرات خائفة، قالت الأم:

"ماذا تريد يا بني؟"

أجبت متلعثمًا:

"أنا عابر سبيل، كنت مارًّا من هنا، أردت شرب الماء، وفي طريقي وجدت دمية جميلة ملقاة على الأرض، وليس لي أخوات بنات، قلت ربما أجد في أحد بيوتكم الطيبة شربة ماء وبنتًا صغيرة تريد دمية".

اتسعت عينا الصبية التي تشبه الدمية اليابانية، قفزت نحوي دون مقدمات أمسكت بيدي بقوة، حدقت بعينيها الواسعتين كالبحر نحو عيني، وهي تبثني عبرهما كل مشاعر الحب والامتنان، ثم أخرجت الدمية من الصندوق وعانقتها بقوة، واختفت داخل البيت..

أحضرت لي والدتها كأس الماء، شربته دفعة واحدة، وقلت لها:

"الله يسقيك من حوض النبي ألوالدة".

ثم عدت مسرعًا نحو أهلي قبل أن ينتابهم القلق على تأخري..

لن أنسى ذاك الوجه الأبيض الياباني، وتلك العينين الواسعتين، ولمسة يدها التي زلزلت كل كياني.. أتساءل كثيرا، كيف صارت؟ هل تزوجت؟ هل تنتظر الصبي الذي أهداها الدمية؟ هل وهل وهل.. لكني في صلواتي أتمنى أن ألقاها مجددًا.. وإن كانت خالية الذهن.. سأسلمها مفاتيحي كلها لتستعمرني.

يظل القدر يسخر من عابر السبيل.. وفي كل رحلة، يهيئ له مفاجئات جديدة.

حياة

صوت يهمس لها: "أحبك" وصوت يهمس لها:" لا تصغي إليه، إنه مدعٍ، إياك..

أمسكت يد رفيق العمر، هزمت الوهم وابتسمت..

اتصل بي صباحًا، ومن حسن حظي أني كنت قد افتتحت يومي بسورة مريم، وليس بمحادثة رجل أجنبي، لكنها فوضى أحدثتها بسبب سذاجتي وسوء تقديري للعواقب، كان عليَّ أن أواجهه، كان عليَّ أن أصغي إليه، أن أعرف ما الذي يريده..

فتحت الخط، وجدته بين النوم واليقظة، يشكو لواعج قلبه، وجراحه، وألمه، وصد والدي له، ومما أخبرني به:

"حياة، ما يصبرني على ألمي أني سألقاك يومًا هذه السنة، وحين سأراك لأول مرة، حقيقة ماثلة أمام عيني، سأضمك إلى صدري المكلوم، وأشفي كل عذابات الحب، سأضمك كرجل بوهيمي يعشقك، وسيكون عناقك أكبر فتوحاتي".

"نزار، تلقاني هذه السنة؟ أشعر بالخوف حقًّا".

"لِمْ؟ أأنا وحش لتخافي مني يا حياة؟"

"لا أقصد أنك وحش، أستغفر الله لكن، حتى أصور لك المشهد، في الفصل الثالث من رواية Q851 لهاروكي موراكامي، تلمح "أومامة" من بعيد "تنغو" جالسًا في حديقة الألعاب، وتراه حقيقة أمامها لأول مرة، ورغم بُعد المسافة بينهما، اجتاحتها خيالات قوية ومشاعر جارفة، نحن يا "نزار" بشر من لحم ودم، ولقاء شخصين بينهما توافق روحي، سيكون كالتقاء الريح بالنار.. كلانا يحب الشعر، كلانا يهيم في اللغة العربية، كلانا يحلق في المعاني الصوفية، لكن.. حين تتكشف الحجب، وتصير الروح مرتبطة بالمادة، يخبو السحر، ويدب الملل، والهجران.. الروح بصفائها ونقائها، إذا دخلتها المادة تثقل وتفسد وتتلوث.."

"لست متفقًا معك يا "حياة" الإنسان إذا أحب لا يفصل الروح عن الجسد، وأنا امتلأت بك لدرجة لم أعد أرى في الدنيا إلاكِ، وحين كنتِ على وشك الانفصال، عقدت عليك آمالًا كبيرة، لأني وجدت فيك كل ما أريده، والآن بعد انفصالنا، لا تحلو لي ضحكة، ولا لمة، ولا أكل ولا شرب.. كلما عدت من عملي ودخلت غرفتي وحيدًا، تخيلت طيفك يبزغ من فراغ يبسم لي.. أتدرين يا حياة أن فراقك خلف فراغًا كبيرًا في نفسي.. وإن كنت تخشين شيئًا فإني أعدك أن ألقاك في مكان

عمومي، وأن أتصرف معك بشكل لائق، ولا أسبب لك أي نوع من الحرج، وألا أتجاوز نصف ساعة، وأنا على يقين أننا لن نشبع من الحديث، وأننا سنود أن نلتقي مرة ومرتين وثلاثًا وآلاف المرات.."

"القطار فاتني يا "نزار" لكن حتى يلتقي شخصان مثلنا، علينا أن نتهيأ نفسيًّا لهذا اللقاء حتى لا ننجرف بعفويتنا إلى أمور لا تُحمَد عقباها.. أعلم حجم ألمك، ولن أتحدث عما قاسيته وعانيته لكن الأمر الوحيد الذي خلصت إليه، أن الله –عز وجل– يختبرنا بالحرمان، وإن قدمنا قلوبنا قربانًا له، حتى يرضى، فسوف يجزينا خيرًا مما طمعت فيه قلوبنا ونفوسنا، الله –عز وجل– لا يبغي بعباده إلا الخير، كلانا بمعايير الروح متوافقان، لكن، بمعايير المجتمع، لعنة، ولعنة كبيرة، لذا أسلِم تسلَم، بالإضافة إلى أنك شاب، تكبرني بثمان سنوات، وأنا متزوجة، سيأتي يوم تقول لي فيه، أنا أنقذتك، وضحيت بشبابي وتزوجت امرأة مسنة.. نحن بشر يا "نزار" فلا تحدثني عن جنون الشعراء".

"حياة، أنت لا تعلمين مكانتك عندي، سواء كنت سعيدة أم حزينة، غاضبة، مريضة، شعثاء غبراء، فإني أحبك بكل تفاصيلك".

"لكننا لو أمعنا في عواطفنا كنا سنخسر الجميع".

"نعم كنا سنخسر الجميع".

"ثم ماذا بعد".

"ثم ماذا بعد؟"

"كنت سألعنك في نفسي طول العمر بدل أن أدعو لك".

"أفضل دعواتك على لعناتك يا حياة، حتى لو لم يكن لنا نصيب معًا، فسأظل إلى جانبك أدعمك وأسدي لك النصح الجميل".

"عش حياتك، لا تربط نفسك بي".

"حياتي أنت، حتى إن قدمت لي نساء الكون".

"لكني مملوكة".

"لكننا لا نعلم ما يخبئه القدر".

"لا أحد يعلم".

"أردت أن أخبرك بالكثير يا حياة، لكن بعد سماعي لصوتك، سأنهي المكالمة وأبكي، لأني أحببتك حقًّا.."

"لا تبكِ، توضأ وصلِّ ركعتين، وأرِح عقلك من التفكير".

"أتمنى لك السعادة، يا حياة، لكن قبل أن تقفلي الخط، هل لك أن تقولي كلمة أخيرة".

"الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات".

ارتعشت أوصالي من هذه المكالمة، حاولت التحلي برباطة الجأش، لكن بداخلي مشاعر متضاربة، بين الاحتقار، والتكذيب، والسخرية، والغضب، والشفقة، أما الحب؟ لا أظن، تخيلت لو كنت فتاة لم ترتبط، ما كنت لأتزوج "نزار"، هو لا يصلح زوجًا، لأنه مدمن على قراءة الكتب، وما كنت قادرة على إخباره بذلك.. إذن لِم جزء صغير مني يريد أن يلقاه؟ من باب الفضول ربما، أم لأسدد له صفعة قوية تشفي غليلي؟ أم لأنهي هذه القصة نهاية سعيدة، أم لأني سئمت السعادة التي أعيشها وأبحث عن خراب عشي؟

أخبرت رفيق عمري يومًا أن يدعني وشأني، لأتعلم، وأتلقى الصفعات، وأخوض التجارب، وإن اقترفت الأخطاء فإن الله سيحاسبني وحدي.. ظل مستغربًا من طلبي، لكنه ربما يقتنع، أن الحب لا يأتي بالغصب، وأنه بدلًا من تشديد الحصار عليَّ، عليه أن يغرقني حبًّا.

عاد رفيق العمر من العمل، وجدني أرتب البيت، وأجهز الغذاء، اقترح عليَّ أن نخرج في نزهة إلى شاطئ المضيق، بعد أن حصل على علاوة في العمل، رحبت بالفكرة، لبست ملابسي أنا والأبناء، وتوجهنا إلى مطعم لطيف، صغير أنيق، ما إن تجلس فيه حتى تعتريك موجة من

السعادة والضحك، ملت نحو رفيق العمر، أشاكسه، وأستفزه بنكات مجنونة، وهو مطرق في وقار لا يتزعزع ولا يتململ، فقلت له:

"أن أسقيك خمرًا حلال فيك، حتى تجن قليلًا ونمرح قليلًا".

نظر إليَّ بنظرة مستنكرة وقال لي:

"ارتقي بفكرك قليلًا".

فأجبته بعناد:

"لا أريد، أرغب أن أنزل بمستوى نكاتي للحضيض، فهل تمانع؟"

"نكات الحضيض مكانها ليس في مطعم.."

"لا أحد يسمعنا.."

"توقفي وكلي طعامك بهدوء".

"أتسمع هذه الموسيقى الإسبانية؟ تجعلني أشعر برغبة في الرقص".

"قومي ارقصي".

"ارقص معي إذن".

"لست مجنونًا لأجاريك في جنونك".

ضحكت، ضحكت كثيرًا، خاصة أن الطعام كان شهيًّا، والصلصات كانت ذات نكهات قوية ومنسجمة بشكل يبعث على السعادة، صلصة البيستو، مع المعكرونة، والصلصة الأندلسية مع الدجاج.. أما التحلية فكانت قطعة من التيراميسو الذي أدمنه بشكل فظيع..

بعد الغذاء، توجهنا إلى شاطئ المضيق، وكان الظلام قد حل، وتلك الأضواء الساحرة تتراقص على جنبتي الطريق المؤدي إلى المضيق، شغل رفيق العمر نشيدًا جميلًا في السيارة عنوانه مع الله:

مع الله في القلب لما انكسر ... مع الله في الدمع لما انهمر
مع الله في التوب رغم الهوى ... مع الله في الذنب لما استتر
مع الله في الروح فوق السما ... مع الله في الجسم لما عثر
ينادي.. يناجي.. أيا خالقي ... عثرتُ.. زللتُ.. فأين المفر
مع الله في نسمات الصباح ... وعند المساء في ظلال القمر
مع الله في يقظةٍ في البكور ... مع الله في النوم بعد السهر
مع الله فجرًا.. مع الله ظهرًا ... مع الله عصرًا.. وعند السحر
مع الله سرًّا.. مع الله جهرًا ... وحين نجدّ.. وحين السمر
مع الله عند.. رجوع الغريب ... ولقيا الأحبة.. بعد السفر

مـع الله في.. عـبرة النـادمين ... مـع الله في العـبرات الأخـر
تبـوح.. وتخـبر.. عـن سـرّها ... وفي طهرهـا.. يسـتحم القمـر
مـع الله في جـاريات الريـاح ... تُـثير السحاب.. فيهمي المطر
فتصحو الحياة ويربـو النبات ... وتزهـو الزهـور.. ويحلـو الثمـر
مـع الله في الجـرح لمـا امّحـى ... مـع الله في العظـم لمـا انجـبر
مع الله في الكـرب لما انجلى ... مـع الله في الهـم لمـا انـدثـر
مع الله فـي سكنـات الفـؤاد ... وتسـليمه بالقـضا والقـدر
مـع الله في عـزمات الجـهاد ... تقـود الأسـود إلى مـن كفـر
مع الله عند التحام الصفـوف ... وعنـد الثـبات وبـعد الظـفر
مـع الله حـين يثـور الضـمير ... وتصحو البصيرة يصحو البصر
وعند الركوع.. وعند الخشوع ... وعند الصفا حين تُتلى السور
مـع الله قـبل انبثـاق الحـياة ... وبعـد الممـات.. وتحـت الحـفر
مـع الله حـين نجـوز الصـراط ... نلـوذ.. نعـوذ بـه مـن سـقر
مـع الله فـي سـدرة المـنتهى ... مـع الله حـين يطـيب النـظر

أسمع كلمات النشيد وأخاطب عقلي الباطن: حياة، ركزي مع شريك العمر، ذاك الصوت كاذب، درويش نبهك مرارًا، تذكري كلمات من يكبرك سنًّا وتجربة، افتحي قلبك لرفيقك..

تسللت يدي وشابكت أصابعي مع أصابعه أستشعر دفئ يده وهي ممسكة بمقود السيارة، شعرت بالأمان، تشبثت بيده أكثر، نعم تلك اليد التي وجهت لي صفعة قوية، تلك اليد التي سببت لي كدمات في وجهي وقلبي، ربما تعلقت بجلادي، لكنه اليوم رفيق العمر، أتمنى أن تدوم هذه السعادة..

شعر رفيقي بالحب يسري، تفاعل معي، بدأ يغني مع لحن النشيد.. ربما أملك تلك القدرة.. ربما أملك القوة لأتجاوز الماضي وأقبل على الحياة، لأني "حياة".. أما "نزار" حتى لو أهرق دموعًا من دم على سجادتي فلن أرق له.. أعلم أنه يشعر بالبساط يُسحَب من تحت قدميه.. وأنه بدأ مسرحية المناحة.. لن أشعر بالعزاء تجاهه.. وكلماته لم تعد تؤثر فيَّ.. وإن وفر ظروفًا لائقة لألقاه فيها، سأواجهه بكل شجاعة وأثبت له أن أبي رباني جيدًا، وأني لن أنساق لمحاولات إغوائه الفاشلة.. لأنه لا يعلم أني من طينة أخرى تختلف عن طينته تمامًا، لأنها لم تمتزج بالغدر والخيانة، رغم محاولته أن يجرني نحو مستنقع آثامه، لكنه لم ينجح.. تلك معركتي الخاصة، وسأرى هذا المدعي الذي يبكي دمًا

ويدعي حبي، وأنا أعلم أنه لا يحب إلا نفسه، ولا يحب إلا بريق المناصب، مهما كذب ومهما ادعى.. حدسي لا يكذب.. أرجو من الله أن يحفظني.. لأني الآن ألعب بالنار.. واللعب بالنار يحرق، ويترك ندوبًا لا تندمل.

وصلنا إلى الشاطئ ليلًا، أمسكت يد رفيقي بقوة، تمشينا مع الأبناء على طول الشاطئ، تأملت أضواء المدينة وهي تتراقص على مويجات البحر، تودع يومًا طويلًا مرهقًا..

أسلمت نفسي للموج، وسرحت بروحي في البحر، وتوقفت عن التمني.. تأملت رفيق العمر وهو يلاعب أبناءه، تمنيت أن يُشفى من كل العلل.. وأن يظل على قيد الحياة لأني لن أتمكن من تربية أبنائي مثله.. لأنه باختصار أب مسؤول رغم موجات غضبه المجنونة.. ليس رفيقًا ممتعًا، وليس شاعرًا رومانسيًّا، لكنه يشبه الرجل البدائي الذي يمسك رمحه ويخرج للصيد ليطعم أسرته وأبناءه.. أليس هذا كافيًا؟

هل كنت أطمع أن أتزوج بعده مثلًا؟ محال أن أتزوج بعده، أو أذوق طعم السعادة إن فارقته، ولن أتزوج شاعرًا، لأن الشاعر كذاب، لا يعرف إلا الكلمات، والكلمات، لا تسمن ولا تغني من جوع.

بعد نزهة البحر، توجهنا إلى المدينة الجديدة، مررنا بـ"الخصة" ورفعت بصري أتفحص مبنى الكنسية، وتذكرت "درويش"، ترى ماذا يفعل؟ أرجو أن يكون بخير.

شعرت بالجوع، فدعاني رفيق العمر لتناول الحلزون، في مطعم صغير، له تصميم بوهيمي، كراسيه عبارة عن جذوع أشجار، ثُبت عليها حن مفروش بجلد الماعز، وغصن شجر ذو لحاء عتيق زُينت به الأسقف، وقد تدلت منه أعشاب عطرية، كالزعتر، والأزير، ولوحة كبيرة مثبته على الحائط بها حلزون كبير، صُمم جسمه بلحاء الشجر، وأذنا استشعاره بعودين من الألومنيوم، وقوقعته بالعديد من القواقع الصغيرة التي تم رصها بشكل منظم كأنها فسيفساء، وتحت اللوحة كتبت المصممة عبارة "أحبك" فطفقت أبحث عن الحب في ابتسامة الحلزونة، واللمسات الرقيقة الأنثوية المحبة التي صنعت بها هذه العاشقة لوحتها..

وجدت الحب في محل "البوش" بتطوان.. أليس هذا جميلًا حقًّا؟

درويش

"سأبقى أحبك راحلًا إليك.. إن كان في الماء فلا أخشى الغريق وإن كان في اليابسة فلا أهاب سيوف الطريق".

في كوكب اليابان

أستنشق بملء رئتي أزهار شجر الكرز، وتتخدر أوصالي وأنا أشاهد منظر الغروب، هناك..

حطت الطائرة في مطار طوكيو، بحثت عن مترو الأنفاق باستخدام GPS، كان شديد الازدحام، لكن الناس يصطفون في طوابير منظمة، وينتظرون القطار بهدوء، وبداخله قرأت لافتة تنبه إلى إغلاق صوت الهاتف، فالقطار بالإضافة لكونه وسيلة نقل، هو مكان للنوم، اليابانيون لا يجدون فرصة للراحة إلا هنا..

شعرت في ساعاتي الأولى من زيارة طوكيو أني في عالم موازٍ، عالم يعيش بقوانين تختلف عن العالم..

طوكيو هي الحب من أول نظرة، هي الجمال والرقة.. كل زاوية فيها نظيفة بصورة مثالية..

وصلت إلى تقاطع طرق تشيبويا، وهو أكثر التقاطعات ازدحاما في العالم.. هناك في هذا التقاطع عروسان سعيدان، العروس ترتدي فستانًا أحمر، تركض وترتمي في حضن فارسها، فيرفعها عاليًا، عاليًا جدًّا، كأنه حقق نصرًا مبينًا.. ما أجمل الحب.. وما أحوجنا إليه!

مانغا عن يميني، عن يساري، في لافتات كبيرة، على الجدران، على المحالِّ، على السيارات، حتى البشر هنا يرتدون ملابس غريبة تشبهًا بشخصيات المانغا، هوس عجيب، لكنه يخلق جوًّا من المرح، ويخفف من الضغط والتوتر، ما أجمل أن تعيش في بلاد المجانين، مدينة الحب لا يسكنها العقلاء..

في مواقع البناء يتم تثبيت عدادات ديسيبل كي لا يتجاوز المارون في الشارع مستوى الضوضاء المسموح به. انتابني الضحك، وأنا أتخيل لو ركبت هذه العدادات في شوارع مراكش، كانت ستحترق وتنفجر بسبب الضوضاء العارمة.

شعرت بالجوع الشديد، وحتى أحظى بوجبة راميون في طوكيو كان عليَّ أن أنتظر أكثر من ساعة.. طوكيو، ليست المكان المثالي للاسترخاء، إن لم يكن معك الكثير من المال.. وستشعر بالأسف عليهم

حين تجدهم يربون الكلاب أكثر من الاهتمام بالإنجاب وتربية الأبناء.. المعيشة هنا مكلفة جدًّا، وقرار الإنجاب عسير جدًّا.

الناس في اليابان يعملون كالمجانين، وبعضهم يموت من شدة التعب، فكرت أني لو انتشلت فتاة حسناء يابانية وجعلتها تزور مراكش ستترجاني أن أتزوجها وأسكنها مع والدتي لتخدمها طول العمر.. مساكين اليابانيون، يشتغلون لعيش حياة مترفة، لكنهم يموتون قبل تذوقها.

لكن اليابانيين مع ذلك ينفصلون عن دوامة العمل في فصل الربيع، في حدث يسمونه "هانامي" حيث تزهر أشجار الكرز، يتأملون في هذه الأجواء الزهرية الساحرة ذواتهم، الحياة الآخرة، الانطلاق في أحضان الطبيعة، ويتجمعون تحت الأشجار يتناولون الطعام والشراب.

تساقطت أمامي زهرة كرز.. رق قلبي لها.. حملتها من الأرض، ربتُّ برفق على بتلاتها، أنا المسافر في هذا العالم الفسيح، ضاق صدري بوحشتي ووحدتي وغربتي.. لكن شعاع أمل أزهر داخلي حين رأيت زهرة الكرز.

بعد يوم من رحلتي إلى طوكيو..

نحو معبد "هاكوني".

فراشة سوداء.. غامضة.. مخملية.. ملكية.. جناحاها مقاومان للماء، رأيتها تحلق من بعيد، تنبثق من الأفق، تخترق الشمس.. شمس الولادة شمس الصباح التي ألقت بخيوطها الذهبية على سفح جبل "فوجي".

تقترب الفراشة، أكثر وأكثر، تغريها مويجات الماء الهادئة، ذاك الصباح، تغمر نفسها بالماء.

كان الماء هادئًا، حين اخترقت سكونه بلا مقدمات، اضطرب سكونه، وهاجت أمواجه.

الساعة 6:00 صباحًا

ركبتُ قطار "شينكانسن" السريع، من محطة "أوداوارا" في "طوكيو" نحو "هاكوني يوموتو"، واستغرقت الرحلة 35 دقيقة فقط بسرعة تحبس الأنفاس. ومن المحطة، ركبت الحافلة إلى "موتو هاكونيوكو"، وتوجهت مباشرة إلى ضريح "هاكوني" **Hakone shrine**، الفضاء الروحاني الخلاب، المحيط بالجبل، ملهم الشعراء والأدباء، ومزار السياح الفضوليين، والحجاج التائبين، والمتصوفين الزاهدين..

كان عليَّ أن أصعد الكثير من الدرج حتى أصل إلى المعبد.. تتلاحق الأنفاس، وتتثاقل الخطوات، لكن الفضول يشدني نحو الأمام، فأسعى قدمًا، أتطلع نحو ما يواريه الأفق..

وأخيرًا وصلت، ما أجمل النسيم العليل في هذا المرتفع الهادئ بالمعبد.. شعرت بنشوة النصر حين التفت إلى الوراء ورأيت كل الدرج الذي تسلقته.. وفي سبيل تحقيق الهدف، وذاك الشعور المسكر حين تصل إلى القمة، تهون الصعاب.

أشعر بالسكينة والسلام.. أرى مدنيين يابانيين ينحنون باحترام للضريح، يؤدون طقوسًا معينة، يصفقون بأيديهم، يعيشون روحانيتهم الخاصة، يطرقون برؤوسهم، ويبثون أمانيهم للإله في خشوع..

عندنا أضرحة كثيرة في المغرب، لكن ضريح "هاكوني" منظم للغاية، نظيف للغاية، عندنا سحر طبيعي خام، يحتاج إلى لمسة حب وعناية.

تجولت في المعبد، تمشيت بين الأشجار السامقة، تقودني خطاي نحو سحر شاعري، وينتهي بي المطاف إلى أجمل نقطة في المعبد، وأكثرها هدوءًا وسلامًا، تُدعى بوابة "توري" طفلتي الحالمة.. "حياة" كانت ستحب هذه البوابة.. تمنيت لو أمنحها جناحين لتحلق بهما وترى ما أراه من شاعرية وهدوء وسلام.. "حياة" المرأة التي أحببتها ولم تكن من

نصيبي، تخيلت أننا معًا نتشابك الأيدي، وحدنا، ونسيم الصباح العليل يداعب أجفاننا الحالمة..

تسألني: ماذا تعني لك حياة؟

فأهمس في أذنها:

"حياة للحياة، ومن أجل الحياة قبلت أن أحيا معها وبها ولأجلها هذه اللحظات".

فتحمر خجلًا وتبسم عيناها الواسعتان المورسكيتان، ثم تتمسك بيدي لا تريد إفلاتها. أراها ترقب الشروق بنظراتها الحالمة، وتغمض عينيها ثم تغرق في صمت طويل كأنها تتلو صلوات، وفجأة تلتفت نحوي، وترمقني بنظراتها الممزوجة بالعتب والحب والرجاء، والكثير من المعاني التي أيقظت بداخلي عاطفة عنيفة جعلتني أضمها إلى صدري بقوة.. ثم أمسكها من كتفيها وأجعلها قبالة عيني لأصغي إلى بوحها:

"أنت ملكي وحدي، لا أسمح لك أن تتلفت لأحد حتى في أحلامك".

"طبعًا أنا ملكك، وهل أستطيع الهرب؟ أنا بين ذراعيك أفقد كل مقاومة".

"كنت أبكي تحت المطر، وحين زارني طيفك بالمظلة ابتسمت مجددًا".

"رأفة بي يا سيدتي، فإني أغار من كحل عينيك الواسعتين".

"أظل أفكر فيك.. وأسائل النجوم في أي حيز يمكنني أن ألقاك.. فتخبرني أن أكتب رواية يخلدها التاريخ، رواية حب مجنون بيني وبينك.."

"ارحمي قلبي، فأنا كل يوم أضعف كثيرًا".

"لا أرحم مَن فر مِن هالتي أياما وتركني بفراقه أتعذب".

"حين نحب، نرحم رغم ما فينا من شوق وألم".

"حاول أن تجعلني أحب، وإياك أن تهرب".

"أين أهرب منك وأنت حضني الدافئ، وملاذي، أنا فيك، وأنت قطعة مني، أحتاج إلى روحك، تلامسني، تخطفني إلى عالمك الحلو، لأنصهر فيك".

"لهذا الحد يا درويش؟"

"إن كان هذا قدري".

"سيكون قدرًا خرافيًّا".

"أحتاج إلى سطوتك، حين تقولين لي لن تهرب مني".

"تحتاج إلى غيرتي، سأكون سمعك، وبصرك، ويدك، لن أسمح لأنثى أن تقربك، لكني سأتركك حرًّا طليقًا، حبك لي سيجعلك تخشى أن تقلق قلبي، وستخشى أن أقرأ في عينيك وجه أخرى.. سأمسكك وأطلقك، وستتعب من التحليق ثم ستعود إليَّ".

"رحمة بي، أسكنيني بين أحضانك، فقد مللت الترحال، ودعيني أتطلع إلى عينيك".

"طال الزمن أم قصر، فأنت أميري يا درويش".

استفقت من أحلام اليقظة، وتنهدت تنهيدة حرَّى، وحيدًا في بوابة "توري"، كم أشتاق لك يا "حياة"، لنبرة صوتك، وهمساتك حين نتكلم، أسافر معك في خيال رائع، كما لو كنت بين ذراعي أحضنك.. وأهمس لك معترفًا: "أحبك" 愛してます

بعد الجولة الشاعرية، وبعد سيل جارف من العواطف، شعرت بجوع شديد.. توجهت نحو مطعم تقليدي في منطقة "هاكوني"، يقدم المطعم وجبة شهية، عبارة عن حساء ساخن يستوي على إناء صغير به فحم حتى لا يبرد، والكثير من الصحون والأواني الصغيرة الجميلة

العامرة بالطيبات، المقدمة تقديمًا أنيقًا يفتح الشهية.. **食欲旺盛** "شهية طيبة" "شكويوكو أوسي".

بعد إنهاء الوجبة، رأيت حافلة سماها صاحب الشركة **Water spider** لإضفاء بعض الإثارة للسياح الأجانب، وهي حافلة تطفو على الماء، وتجمع بين وسيلتي نقل، الحافلة والباخرة. نعم يا سادة، إنه كوكب اليابان..

انطلق العداد، ثلاثة، اثنان، واحد..

وفي لمح البصر، العنكبوت المائي يمخر عباب البحيرة، ويستحم بذهب الشمس..

حل الليل، وبت ليلتي في فندق فوجي ميهانا ريزورت، **Mihana Resort Fuji** مرتديًا كيومنو نظيفًا ومريحًا، داخل حجرة تقليدية، تشبه ما نشاهده في الدراما اليابانية التاريخية، من الخشب، بأبواب كبيرة، وفرش على الأرض، بسيطة، مريحة، ونظيفة..

انبعثت أغنية هادئة بصوت خفيض من الفندق، سمعتها وأنا أتملى ضوء القمر من نافذتي وحيدًا..

لو كان بإمكاني تحقيق أمنية واحدة..

سأتمادى في خيالاتي

قضيت يومي شارد الذهن

إنها إحدى ليالي طوكيو حيث القمر محتجب وراء الغيوم

تماما مثل طيفك الجميل

تردد السؤال على قلبي بإلحاح

والجواب كان

أنا معجب بك

مكتفٍ بك

في أعماق الليل بجانب الشقة

اشتريت علبتين من القهوة من آلة بيع متعبة.

لو كانت يدي قادرة على مسح دموعك

لمددتها نحو طيفك البعيد وأبدلتها ورودًا ووعودًا

أنت تشبهينني

أنا معجب بك

حتى لو كان كل تواصل بيني وبينك كلمات جامدة

أستطيع لمس الدفء الكامن وراءها

تمامًا مثل ذاك القمر المحتجب وراء الغيوم

ويتردد صوتك في مسامعي..

يزيد من لهيب الشوق..

رفقًا بحالي يا قمري

فأنا أيقنت هذه الليلة

أني معجب بك.

الفصل العاشر

محاولة عيش

حياة

كان درويش مدركًا لخطر التواصل الإلكتروني عليَّ، كانت ردوده على رسائلي مختصرة جدًّا، وأحيانًا منعدمة. اتصلت به بإلحاح لأعرف السبب، قال لي:

"حياة، أنت لا تدركين الخطر الذي تضعين نفسك فيه، أتعلمين أن المحكمة الابتدائية بوجدة حكمت على سيدة متزوجة تتواصل مع غرباء عبر صفحة الفيسبوك، تجاوزت معهم حدود الصداقة، بأنها أخلت بواجب العفة، اعتبرته ضررًا معنويًّا للزوج، يترتب عليه تطليقها، أو تعويض الزوج ماديًّا، حصل هذا سنة 2013، أنا أخاف عليك فضيحة نحن في غنًى عنها".

"صفحتي هذه آمنة، يمكنني التواصل فيها بأريحية".

"أدرك أنك تحتاجين دعمًا نفسيًّا، وشخصًا يصغي لك، لكني أخشى أن يضبطك زوجك، عندها ستكون العواقب وخيمة".

"الخطر أن تتركني أتخبط وحدي في حربي الصامتة مع من يتعقبني بلا كلل ولا ملل، ويشكل تهديدًا كبيرًا على سمعتي. لكني لا ألومك يا درويش، لست مسؤولًا عني، ولست ملزمًا بمساعدتي، ولست ملزمًا بإزعاج نفسك بقصتي البائسة".

"حياة، لا تقولي هذا، أنا أريد مساعدتك حقًّا، التزمي بنصائحي، أنا أحرسك من بعيد بعيني، أريد لشمسك أن تشرق.. إياك أن تستسلمي، اقهري عدوك بنجاح باهر. أنت في قلبي، وروحي معك، أنا معك دائمًا، كوني قوية".

"انطلت عليَّ حياته يا درويش، كان يشارك مع الناس الكثير من الأحاديث والأدعية، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، تسلل إلى عالمي، أقنعني أنه يريد لي الخير فقط، فإذا بي أتورط مع شيطان خطير مات وازعه الديني، في حوارات عاطفية".

"قلت لك انسيه يا حياة، انسيه تمامًا".

"أنت شخص صالح".

"أنا شخص عادي جدًّا، أنا لا أصلي يا حياة، أقولها لأني صادق مع نفسي، لأني لا أجاملك، ولا أتملقك، ولا أريد منك شيئًا، وأعلم

أنك ستتألمين حين تعرفين ذلك، لكني على الأقل لا أخدع أحدًا ولا أنافق أحدًا، ولا أعطي انطباعًا مزيفًا للآخر عن نفسي".

"يبدو أن من صادفتهم من الناس جعلوك تتوقف عن ممارسة الشعائر الدينية، وتحاول البحث عن الحقيقة".

"أذكر أن بائعًا في حينا بمراكش، كان يدعي أنه متبع للسنة، مواظب على الجماعة، دعاني يومًا لصلاة الجمعة معه، فأجبت دعوته، وتبعت خطوه، كانت الخطبة عن الغش، وذكر الخطيب حديث رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: "من غشنا فليس منا".

مرت الأيام، ولم أواظب على الصلاة، فلاحظ البائع الناسك انقطاعي عن المسجد، وأكثر عليَّ من الوعظ والتغيب والترهيب، وأنا أصغي بهدوء، بعدها أردت شراء غرض منه، فوجدته قد ضاعف ثمنه، فقلت له "من غشنا فليس منا" ألم تسمع هذا الحديث في خطبة الجمعة؟ فأين التطبيق؟

"هذا ثمنه".

"هذا ثمنه؟ لا يا سيدي، أعرف ثمنه، وأنت زدت عليه كثيرًا. وهذا استغلال وسرقة وغش للمواطن المسكين، والآن إياك أن تدعي الزهد

والورع أمامي، وابتعد عن طريقي وإلا ألصقت لك تهمًا ثقيلة وأدبتك تأديبًا يليق بغشاش مثلك".

"ثم تركته وانصرفت وأنا أتأمل هذا العالم المنافق".

"معك حق في أن عالمك منافق، عالمي أيضًا جعلني أخاف أن أمس المصحف وأصبح مثلهم مزهوة ببعض آيات قرأتها مغترة بحالي منمقة من الخارج سوداء من الداخل. وحين ابتعدت عن هذا الوسط السام واعتزلت الناس تمكنت أخيرًا من أن أفتح المصحف مجددًا".

"الأجانب هنا حين يسلمون، يسلمون عن قناعة تامة، ويقولون إنهم لو تعرفوا على المسلمين في عصرنا هذا لما فكروا قط في اعتناق الإسلام، هم اقتربوا من الحقيقة بإعمال العقل والتأمل. لم يعبدوا الله لأنهم ورثوا ذلك عن آبائهم وأجدادهم".

"ما هي الحقيقة يا درويش؟"

"لو كنت أعلم الحقيقة، لكنت في مقام آخر".

"أنا نفسي أجهل الحقيقة، لكني أشعر أنها مقرونة بالحب، لأن المحب وحده يبصر بعين الحقيقة".

"الحقيقة حب".

"نعم يا درويش.. أتدري ما قاله دوستويفسكي عن الحب؟"

"ماذا قال؟"

"لم أنتظر منك أي شيء، لم أطلب عطفًا ولا بكاءً ولا عراكًا ولا أن تقاتل الدنيا معي، كنت أحتاج أن أشعر بقلبك معي لا أكثر".

"وقلبي معك في كل وقت وحين".

"أنا أحب إذًا أنا موجودة.."

"من تحبين؟"

"الحب نفسه".

"ماذا تريدين يا حياة؟"

"أريد أن أخوض غمار البحر بحثًا عن الحقيقة مثلك".

"إياك، إياك يا حياة فالبحث عن الحقيقة ثمنه باهظ جدًّا لن تتحمله فراشة رقيقة مثلك.."

"لكن لِم يجوز لك ما لا يجوز لي؟ أريد أن أعرف كيف تكون السباحة بحثًا عن الحقيقة".

"حياة، أنت امرأة، وحتى تخوضي رحلة البحث، عليك أن تكوني أقوى من الرجال، لكنك ما زلت رقيقة جدًّا.. هشة جدًّا.. لا أريدك أن تتأذي.. ابتعدي.. يكفي أن تعرفي من الحقيقة أشعاري.. يكفي أن تسمعي من الحقيقة حكاياتي المسائية.. لا تشربي من كأس الحقيقة.. أخاف عليك أن تغيبي عن الوجود.. وأنا أحتاج سطوعك وبهجتك لتغمر ذبول أيامي ورتابة الزمن الذي يسحبني نحو النهاية.. أنت جميلة حيث أنت.. لا تقتربي أكثر.. من أجلي".

يقول مسافرٌ في الباصِ لا الراديو

ولا صُحُفُ الصباح، ولا القلاعُ على التلال

أُريد أن أبكي

يقول السائقُ: انتظرِ الوصولَ إلى المحطَّةِ

وابْكِ وحدك ما استطعتَ

"محمود درويش".

6:00

توجهت مع أسرتي إلى المحطة والتقينا هناك مع جمعية نظمت رحلة في يوم واحد من واد لو إلى شفشاون..

امتطينا سيارة النقل، وانضمت إلينا فتاة ذات شعر مجعد، تحب الغناء والمرح وشغلت لنا الكثير من الأغاني، من بينها أغنية "مراكش يا بهجة الأيام" لنعمان الحلو:

مراكش

من لبعيد أنا شايف انوارك

عروسه غزالة

والفرحة مازالا ديما فقلب دارك

أمراكش الباهية

وأنت ديما زاهيه

وبشارة ليام

كان معنا رجل مسن فرنسي يحب الرسم ويهيم في الطبيعة، شعرت أنه مستمتع في الرحلة، وكان كلما مر أمامه مشهد لهضبة صخرية يتبعها بنظرات ممزوجة بالدهشة، كأنه طفل في أول عهده بالعالم.

وزعت علينا إحدى المسافرات "كرواسان" رقيق القشر ذهبي اللون، محشو بشوكولاتة سوداء فاخرة، وعلى شرف هذه التحلية الصباحية، شغلت أغنية فرنسية مطلعها:

Un croissant, un café–crème Ça remplace les je t'aime Quand au sortir de son lit On est seul dans la vie

طفقت أتأمل الشروق من النافذة، وأرجو من شعاعه أن أعيش ولادة جديدة.

وصلنا إلى واد لو، افترقت الجماعة على مقاهٍ بالمنطقة، واخترت مقهًى مطلًّا على البحر، تناولنا إفطارًا دسمًا، بيضًا كثير التوابل، وكأس شاي، وزيتًا وزيتونًا وجبنًا بلديًّا، ثم تمشينا قليلًا بمحاذاة الشاطئ، وعدنا بعدها إلى السيارة، طلبت من المنشط أن يشغل أغنيتي المفضلة للحلاج:

والله ما طلعت شمس ولا غربت إلا وحبك مقرون بأنفاسي
ولا جلست إلى قوم أحدثهم إلا وأنت حديثي بين جلاسي
ولا رأيتك محزونا ولا فرحا إلا وأنت بقلبي بين وسواسي
ولا طفقت لشرب الماء من عطش إلا رأيت خيالا منك في الكاس

10:00

وصلنا إلى واد إفرطن.. تسابق الشباب لإلقاء الحصى في بركة الماء، ورقصوا على أنغام موسيقى الركادة، وكان أخفهم حركة ذاك العجوز الفرنسي، صاحب النظرة الحالمة والروح التواقة لعناق الطبيعة، هو فنان مثلي، يرقص بقلب طفل مع الشباب، ويبدو بحركاته وتأملاته أكثرهم حيوية وشبابًا.

بعدها التقطنا صورة جماعية أمام الوادي، كانت النساء ودودات يشعرنني بدف الانتماء للجماعة، ما أجمل ذاك الشعور حين تكون منبوذًا فترة طويلة، ثم تجد أذرعًا مفتوحة تعانقك دون مقابل.

إحداهن توفي زوجها منذ زمن، وحكت لي كم هو صعب أن تربي الأبناء دون زوج.

12:00

توجهنا إلى أقشور، لزيارة الشلال، كانت المياه غزيرة، صافية، قد امتزج صفاؤها بقعر النهر المغطى بالطحالب، وانعكست زرقة السماء على صفحتها الرقيقة فأعطتها لونًا زمرديًّا عميقًا، وحركت صفحتها نسمات خفيفة، رسمت عليها تموجات صغيرة منسابة بلطف، تراقصها، وتتبعها نحو مجراها..

بقيت مسحورة بمناظر الطبيعة، ألتقط الكثير من الصور من هنا ومن هناك، وتخلفت عن القافلة، مما أغاظ زوجي مني كثيرًا، وجدت في طريقي عش عنكبوت نسج بشكل خلاب، وتذكرت الآية: (وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ العَنكَبُوتِ) (العنكبوت الآية 41)

تساءلت، هل بيتي يشبه بيت العنكبوت؟ أم أنه عش نورس حر على ضفاف بحر تطوان؟

عدنا أدراجنا بعد أن لفحتنا شمس الظهيرة، وأعيانا المشي حتى تورمت أقدامنا، ثم توجهنا إلى شفشاون، ودخلناها من "باب المحروق"، ويرجع تاريخ بناء هذا الباب على الواجهة الشمالية للمدينة إلى القرن 10هـ.

تجولنا في أزقتها الساحرة المطلية بالأزرق النيلي المميز، واللمسات الأندلسية الفاتنة تطل علينا من كل شبر وزاوية وشرفة.

وصلنا بعدها إلى القصبة، وضعت يدي على الجدار، خفق قلبي لملمسه، تخيلت أميرة القصبة في الجهة الأخرى من الجدار، تنتظرني باسمة بوجهها المشرق ونظراتها الحنونة.

رفعت بصري نحو الساحة، رأيتك يا درويش ماثلًا أمامي بمظلتك الكبيرة تنتظرني وتبتسم.

19:00

قبل رحلة العودة أردت أن أكون رومانسية مع زوجي، قطفت له وردة، لكنه رفضها، غضبت، ألقيتها أرضًا، أخبرته أني بحاجة إلى هذه اللمسات الرقيقة، فأجابني بالتجاهل، شعرت بحبسة في قلبي، لِمَ الحياة جميلة مزدانة مبهجة، لكنها حين تصل إليَّ تتوقف وتكتئب وتذبل وتبخل عليَّ بكل ذاك الجمال وتلك الرقة؟ ما الجدوى من الرحلة وليس فيها حبيب يحتويك؟ ويشبعك عاطفة حتى ترتقي إلى محراب السعادة، وتتراقص الألوان في عينيك حتى تعم الحجر والشجر والأرض والسماء؟

لِمَ يا درويش؟ وأنا العاشقة للحب والرقة والجمال، أحرم هذه الهبات؟

درويش

"هناك حب يمر بنا فلا هو يدري ولا نحن ندري".

أنا درويش كما يحلو لحياة أن تسميني نسبة إلى شاعرها المفضل "محمود درويش"، صارت قضيتها تؤرقني..

استأمنتني حياة على أسرارها وحكت لي الكثير من التفاصيل..

حياة ضحية للابتزاز العاطفي من متربص على الفيسبوك، وضحية للتعنيف الأسري من طرف زوجها.. وللأسف الشديد، حكت للنصاب الذي تسميه "نزار" كل تفاصيل حياتها، ومشاكلها السطحية والعميقة مع زوجها، وكان يبدي تعاطفًا كبيرًا معها ويتقمص دور الناصح الأمين الذي يريد أن يرى أحوالها بخير مع زوجها وأهلها، لكنها لم تعلم أنها بسذاجتها وطيبتها الزائدة عن اللزوم قد مكنته من قلبها، ليتلاعب بها كما يشاء، ويصيرها ألعوبة بين يديه يتحكم في حياتها بأوتاره الشيطانية الخفية.

استغل ضعفها وفراغها العاطفي، وبدأ يحثها على مزيد من البوح، ويضخم حجم المشكل بينها وبين زوجها في عينيها، ويخبرها أنها لو كانت أخته لجمع حقيبة ملابسها ولانتشلها منه.. كان يحاول أن يشعرها أنه مخلصها من العذاب، وأنه الشفاء، وأنه نصيبها من السعادة.. وهي للأسف صدقته.

حاول نصب شباكه عليها لمصلحة من أبيها، كان يشجعها على الطلاق، ويتابع خطواتها في الموضوع بدقة، شاركته كل خطواتها، أرسلت له صور عقد زواجها وملف طلب الطلاق، وأرسلت له صورة لمكتب المحامية التي ستتولى ملف طلاق الشقاق، والكثير من المقاطع الصوتية تستفسره فيها عن الإجراءات القانونية، ويقول لها بعد كل حوار أو نقاش أنه يسجل كل ما دار بينهما بالحوارات، والمقاطع الصوتية والصور، وأنه حرصًا عليها يجب أن تمحو كل شيء، وإن أرادت شيئًا مما دار بينهما سيرسله لها.. كانت تخبره أنها تمحو كل شيء، لكنها كانت تحتفظ بملف لتسجيلاته الصوتية وصوره من باب الاحتياط.. كان خبيثًا، يغلق هاتفه، ويتركها تخوض حربها وحدها، ويفتح في ساعة محددة من النهار ثم يرد عليها بمقاطع صوتية، يظهر لها فيها أنه سعيد وفخور بها ومبارك لخطواتها، ثم يعقد معها موعدًا لمكالمة هاتفية ليلية الساعة الواحدة، أو الثانية، ويبقيها تنتظره، إلى أن يحين الفجر، ثم يتصل بها بعد أن أحرقها بنار الانتظار، كان يجرب فيها نظريات نفسية قرأها في كتب

مجانية حملها من الإنترنت، أو مقاطع صوتية سمعها هنا أو هناك، حول فنون الإغواء، كان يسعى إلى جعلها تعشقه بجنون، وفي إحدى الليالي التي كانت قريبة من الجلسة الأولى لرفع دعوى "طلاق الشقاق" أراد إلهاب عاطفتها فبدأ يحدثها عن اشتهائه لها، ورغبته في معاشرتها، وأنه شاب يحتاج إلى البوح بمكنوناته وأن المتحابين لا ضير أن يخوضوا أحيانًا في هذا النقاش، كانت بدافع الفضول تريد أن تسمع ما سيخبرها به، حين يقول لها أنه يريد أن يبوح لها بكلام خاص، وحين تصغي إليه، تحمر خجلًا، وتقول له، بسذاجتها، حين نتزوج، كل شيء سيكون مباحًا وحلالًا، وحين يغلق الخط، تتملكها رغبة جامحة في المعاشرة، الذئب هيج مشاعرها وجعلها تتخبط في رغباتها ولا تدري كيف تتعامل معها، وهي على مشارف الطلاق، وهو لم يبح لها حتى باسمه الكامل، فكيف ستسلم نفسها له، كيف ستثق به وهو متلاعب خطير، لا تدري نواياه الحقيقية، هل يعقل أن شخصًا يحدث سيدة لم تتطلق بعد عن رغباته الجنسية أن يكون زوجًا صالحًا ويعينها على تربية ابنيها؟ صحيح أنه أحكم حباله على قلبها، أنه أعطاها الكثير من وقته، وأوهمها أنه ملاذها الآمن، لكن تهييجه لها وهي بعيدة عن فراش زوجها ولم تتطلق منه بعد، كان شديد القسوة عليها.. لم تتحمل أكثر.. كانت تلك هي النقطة الحاسمة التي أفاضت الكأس.. صدته وعادت إلى رشدها، ورفضت أن تلتقيه وجهًا لوجه، وعادت إلى زوجها، لكنها أدمنت "نزار"، أدمنته

بشدة، ولم تتمكن من منع نفسها من التواصل معه، وهو حين وجد نفسه قد خرج من هذه اللعبة صفر اليدين، قرر الانتقام منها، وكان نفسه طويلًا، طويلًا جدًّا..

تعمد الحوار معها على تطبيق "الواتساب" في ساعات حرجة ليلًا، صباحًا، ظهرًا، وقت العيد، حتى افتضح أمرها، وضبطها زوجها..

ساقها زوجها إلى بيت والديها، وأراهم حواراتهما المكتوبة، وفضحها مع أبيها وأمها وإخوتها، خسرت "حياة" ثقة الجميع، زوجها، أمها، أبيها، إخوتها، وأصبحت منبوذة موصومة.

وكاد الزوج أن يضع رقم هاتفيهما تحت تصرف الخبرة الجنائية، لكن رئيس قسم الشرطة أخبره أن زوجته ستتعرض للسجن بتهمة الخيانة الزوجية، وستسجن، وسيتلوث ملفها وستتدمر سمعتها في المدينة كلها، لهذا لا داعي لمتابعة كلا الطرفين، أحجم الزوج عن متابعة القضية، وعاد إلى زوجته غاضبًا، سدد إليها صفعة قوية حتى تسبب لها في كدمات زرقاء حول هالة عينها، ولأن له عيونًا منذ مدة تتبع زوجته، فقد كان متيقنًا من أنها لم تلتقِ به قط.. لذا يكفي أن يضيق عليها الخناق ويغرقها بأعمال البيت، علها تتوب عن داء العشق الذي أصابها.

أما الخبيث رغم كل ما حصل، كان مصممًا على الوصول إلى والدها بأي ثمن، وكتب له رسالة طويلة، يستعطفه فيها أن يعفو عنه، وأنه أحب ابنته حبًّا صادقًا وقد بادلته نفس الحب، وأنه كان ينوي الزواج بها بعد طلاقها من زوجها.

لكنه قوبل بالصد والتجاهل، ففكر في خطة جديدة..

قلت إن "حياة" لم تقطع تواصلها مع "نزار" رغم كل المصائب التي حلت بها، وكانت تتواصل سرًّا معه عبر بريد سري، حيث أنشأ "نزار" مجموعة خاصة على الفيسبوك ليس فيها إلا هما فقط، وهناك كان حريصًا جدًّا في كلماته، يتجنب إثارتها أو إغواءها، يدعي أنه ما زال معذبًا بحبها، وأنه يبكي على فراقها، ويتألم لأجلها، ويريد أن يراها مرة واحدة في حياته، يودعها ويهديها أشياء من باب الذكرى.

كانت تدرك تحركاته وخطواته، وكان يعلم في أعماقه أنها تفهم حيله، لكنه يعرف نقطة ضعفها..

"حياة" تحب الكلام المعسول، ويقتلها الفضول ليكشف لها "نزار" عن شخصيته الحقيقية على أرض الواقع، هذا الغريب الذي ادعى أنه يعشقها بجنون.

صارت تزور مجموعة الفيسبوك الخاصة يوميًّا، تنشر صورا من الطبيعة، وتشاركه آيات من القرآن وأدعية، وفي أحد الأيام كتب لها: "أحببتك حبًّا صافيًا طاهرًا لا أبغي من ورائه مصلحة أو أذًى".

فلم تشعر إلا وهي تكتب له ردًّا بنفس العبارة.. يداها دائمًا تسبقانها للوحة المفاتيح..

ورطت نفسها حين فتحت له باب الحوار، وكان يستدرجها للكلام والبوح، بلا كلل ولا ملل.. لا تدري بالضبط نواياه، لكنها تخمن أنه يريد الوصول إلى والدها بأي ثمن، وأنه يعتبرها جسرًا للوصول فقط..

صوت يتردد بداخلها مرارًا وتكرارًا "أفيقي"، وجفاء زوجها وجفافه العاطفي يجعلها تتمرد وتلقي بنفسها إلى التهلكة، وتسلم قلبها لذاك الوغد..

وماذا بعد يا حياة؟ وماذا بعد؟

لا يريد "درويش" أن تقعي في مصيبة، لا يريدك أن تلحقي العار باسم عائلتك.. احترسي فأنت تطئين أرضًا محرمة.

حياة

"أنا امرأة لا أقل ولا أكثر فكن أنت قيس الحنين إذا شئت.. أما أنا فيعجبني أن أحب كما أنا لا صورة ملونة في الجريدة أو فكرة ملحنة في القصيدة بين الأيائل.."

أفتقدك يا درويش، أشتاق إليك، أشتاق إلى سماع صوتك، أحببتني، وأعطيتني جناحين، ولم تقيدني بحب التملك، قلت لي أن أعيش حياتي الخاصة، وأن أعيد بناءها، لكن كيف أفعل ذلك وقلبي قد سرقه شخص لم ألتقه قط ولم أرَه قط، والفضول يقتلني لأراه، وأكلمه، وأصافحه، وأضمه، وأشتم رائحة عطره، أنا السيدة، الشريفة العفيفة المتزوجة، أم الأبناء أقول مثل هذا الكلام، فأي جنون حل بي، أتراني تحت تأثير سحر أو شعوذة، لكني جربت الرقية فلم تؤثر إلا في إبعاد الخيالات الجامحة عن عقلي، لكن قلبي بلا وجود طيفه يعاني اليتم والفراغ، وقلت أصرف حبي وأوجهه لحب الخالق، لكني في النهاية بشر يا درويش، أريد أن أحب رجلًا من لحم ودم، وأتقاسم معه قُبلًا حارة في

فراش الحب، أتدري يا درويش، أني جذبت زوجي لأمارس حقي في الحب مرات كثيرة كأني عروس جديدة مشتاقة للحظات حميمة، فعلت هذا، ولم يخفق قلبي، قلبي يحن لنزار، ويريد أن يرى نزار، ويريد أن يعانق نزار، أليس الموت في حقي أهون من البقاء حية بعقل مريض بنزار، ألست خلية سرطانية ميؤوسًا منها يجب استئصالها؟ أقمت طقوس النسيان، وقرأت رواية "نسيانكم" لأحلام، وحين استمعت لأغنية النسيان التي زرعتها في روايتها، جعلتني أبكي لحد الجنون، وزادت من إضرام نار الحب، واسترجاع الذكرى بدل النسيان:

على شِفاهي، أزهرت قُبل الوداعِ
لك قِطافي يا نِسيان
هَبني قُبلتك

حين خضت معك في هذا الكلام، قلت لي ألا أكرر على مسامعك الحديث عن الماضي، ألا أذكر شيئًا عن الموت والخلايا السرطانية، أن أعيش وأحب الحياة، وأركز مع زوجي، وأحاول جعله ينسى أني انصرفت عنه بحب آخر، وأنه يحبني جدًّا حين غفر لي زلتي، وألا أتمادى، حتى إنك قدمت قلبك قربانًا لفراغ الفراق، علَّني أنصرف عن حبه وإدمانه وأنسى، وأسمعتني صوتك الرجالي الآسر الذي ملك لبي

وخدر أوصالي، وجعلني أحلم كل ليلة أن أمسك ذراعك القوية في ليلة ممطرة وأجوب معك كل شوارع إدنبرة.. نعم كان لك ذاك التأثير القوي عليَّ وذاك السحر، الذي أبعدني قليلًا من دوامة إدمان "نزار"، وحين شعرت أني بدأت أحبك، خشيت عليَّ، وابتعدت، وجعلتني أحترق بنار شوق جديد، وبدل أن أنسى نزار، صار عليَّ أن أتعامل مع شوقي لك، وحنيني لنزار، وخرابي مع زوجي الذي يذكرني كل دقيقة وثانية أن أفرغ جيوبي من كل درهم لأساهم في مصروف البيت، ودون النساء، لا أملك ما تملكه النساء، ولا أذهب إلى مصففة الشعر إلا في المناسبات الكبيرة، وأمر على الكثير من الأشياء والأغراض، دون القدرة على شرائها، لأن زوجي العزيز أفرغ جيوبي كليًّا.. فكيف سأبني حبًّا مع رجل يستغلني؟ بقيت تحت وطأة الاستغلال حتى تأججت بداخلي رغبة الانتقام، فتمردت وتجرأت وسمحت لقلبي أن يحب حبًّا عذريًّا مجهولًا وراء البحر.. وبدل أن يكون هذا الحب دافعًا للشفاء من سم الزوج، زاد من حقدي عليه، وأشعرني أني أقتل نفسي كل يوم أصبر فيه على البقاء معه..

بنزار أو دونه، كنت سأبحث عن الحب مع أول شخص يفتح لي ذراعيه، لأن زوجي طغى عليَّ طغيانًا جعلني أتمرد إلى هذه الدرجة، إلى درجة لم أعد أبالي فيها حتى إن خلفت ورائي كل هذا الخراب..

فررت إليك يا درويش، مع حلم بالسعادة، وأفهمتني أنني أمتلكها حقًّا، وأنني منبع السعادة، ودفعتني برفق إلى المحطة، لأعود لزوجي وأبنائي، وأنت أحوج منهم إليَّ، وقلبك يريدني بكل ذرة فيه، قدمت قلبك قربانًا لي، وتركتني أحلق دون أن تطلب المقابل، ألست ملاكًا من الجنة يا درويش؟ أتعلم أنك أعدت الحياة إلى قلبي، وجعلتني أشعر أني امرأة.. وقلت لي: "أنت امرأة".

قلت لك:

"المرأة عار وصوتها عورة وكلمة امرأة تجعلني أرتعب".

كررت على مسامعي: "أنت امرأة".

لم أكن لأفهم قط معنى أن أكون امرأة، لولا تلميحك، أبحرت أقرأ ما معنى امرأة.. فحلت عقدة الطفلة، وصارت تنبت منها أنثى برائحة الورد..

وتتثاءب بصوت نعسان..

إذن هل عليَّ حقًّا أن أكون امرأة؟ كم هو مخيف وصعب أن أتقمص هذا الدور.. أنا امرأة تمردت على جنس النساء.. أنا إنسانة تحب الكتابة.. ودور المرأة لم يحن بعد.. أنا طفلة كبرت قليلًا ووصلت

لسن المراهقة، حين تصبح امرأة.. أتراها تجدك يا أستاذ المرأة؟ يا من تعشق أحمر الشفاه؟ وحين سألتك بإلحاح:

"حقًّا؟ أنا امرأة؟"

أجبتني بابتسامتك الساحرة:

"حقًّا أنت امرأة.."

بعد محاولات عدة للتواصل معك أجبتني أخيرًا، فقد كنت مغمورًا بالمشاغل يا أمير إدنبرة، وحين أجبتني بعد انقطاع، عادت الدماء تجري في عروقي، وعادت بسمتي.. تعلقت بك دون حسبان يا ساحري، اعتذرت عن غيابك، وقلت لي بلغة أنيقة، أنك تقبل يدي اعتذارًا، كم أذوب من فرط رقتك وشاعريتك، يا شاعري الحنون.. قلت لك:

"لا تقطع أخبارك عني، لا تغب، صرت جزءًا مني، انتقل طيفك الجميل من المواقع إلى الواقع، صرت أدعو لك في صلواتي، وأذكرك في خلواتي، وأحلم بك في صولاتي وجولاتي، أخاف عليك يا درويشي، فلا تغب عني".

"أعدك عزيزتي، حفظك الله لقلبي، ولا حرمني حنانك، أعدك أني سأمر عليك، سأطمئنك وأطمأن عليك، ولتسمحي أن أهديك أغنية".

"تفضل".

ماذا أقول، وكيف أصف الشعور، نقلني إلى دنياه، أنا الطفلة التي لم تسمع قط لأم كلثوم، أسمعني أغنية بتسجيل صاف وصوت أنثوي عذب يفيض حبًّا وشوقًا ويتكسر تكسرًا ناعمًا جذابًا مغريًا: "أوعدك ديمًا فكراك".. ألم أقل أن درويش أستاذي في الحب، وأنه يعلمني أصول التغنج، ومبادئ الأنوثة..

أرسلت له مقطعًا من رسوم متحركة لقصة "صاحب الظل الطويل" تقول كلماتها:

"حلمتُ بالسعادة حلمتُ بالحياة

وسدت الدروب واشتدت الخطوب

فجئت من سراب فتحت لي الأبواب

حملت لي العطايا لتزهر الأحلام وتضحك الأيام

يا صاحب الظل الطويل".

يا صاحب الظل الطويل، يا أمير إدنبرة، يا درويشي، فليغمر الله قلبك بالحب والسكينة والسلام.. أحبك، لأنك أنت.

الفصل الحادي عشر

لقاء الريح بالنار

درويش

"أحب الحديث معك رغم أني لا أملك ما أقول".

من البيت إلى العمل ومن العمل إلى البيت، ثم أكسر روتين اليوم بلقاءات مع الأصحاب، ومشاهدة مباريات كأس إفريقيا، لكني أعترف حقًّا، أن حياة اجتاحت كياني، واحتلت أرضي، وسكنت فؤادي.. وحتى لا أدمنها لحد الجنون، حاولت تجاهل مكالماتها، والتقليل من التواصل معها، وإفهامها أني منشغل كثيرًا هذه الفترة.. لم أشأ أن تتعلق بي.. أنا تعودت الصبر على الفقد، وهي لن تصبر ولن تنسى، فأعطيتها جرعة نسيان رحيمة قبل أن تقع.. أريدها أن ترتاح في عشها، مع زوجها وأبنائها. أعرف أنها تعاني بشدة، أنها تصارع المتناقضات الشعورية داخلها، لكن، ماكنت أستطيع الخوض في علاقة عاطفية معها رغم أن كل جيناتي وخلايا تكويني تريدها وتنجذب لها وتروم وصالها.

حاولت تقمص شخصية امرأة وإضافة الوغد الذي يحرقها من الداخل يومًا بعد يوم إلى صفحة فيسبوكية أعارتها لي صديقتي "ليندا" المحققة النرويجية.. كلفتها بتجميع معلومات شخصية عنه، بسرية تامة، ووعدتها أني لن أستخدمها قط، كل ما أبغيه أن آخذ فكرة واضحة عنه، عن أهدافه، لأخوفه قليلًا وأعطيه قرصة أذن حتى لا يتمادى في غيه ويحجم عن تتبع "حياتي" ويتركها تعيش في سلام، وحينما تم قبول طلب الصداقة من "نزار"، تفقدت منشوراته فوجدتها سليمة لا تنم عن شخص مريض، أو منحرف، بل على العكس، "نزار" يبدو شخصًا مثقفًا جدًّا، ملمًّا ببواطن الكتب، قوي الألفاظ والعبارات.. غريمي ليس سهلًا، ويبدو أن "حياة" قد أحبته حقًّا، من خلال كتاباته، والطاقة الإيجابية التي ينشرها..

دخلت معه في حوار هادئ، حول مواضيع شتى، كان حذرًا جدًّا، يتكلم بمقدار، متكتمًا جدًّا، يلعب دور الأستاذ الذي يصحح الأخطاء النحوية والصرفية، ويسدي نصائح، ويشارك معلومات، فاحترت في أمره، أهو شاعر، أم مهووس بالرياضة وأخبارها، أم شيخ يعظ الناس من فوق المنبر، أم مستشار في علم النفس..

بدأت باحتلال منظم لصفحته، أعلق على منشوراته، أضغط على القلوب الحمراء تحت كل منشور يكتبه، أطرح عليه الأسئلة، حتى

اطمأن لي تمامًا.. وبدأ يدردش معي على الخاص أحيانًا.. إلى أن طلب رقم هاتفي.. وهنا وقع الوغد أخيرًا.

اتصل "نزار".. شغلت تطبيق الذكاء الاصطناعي لتغيير نبرة الصوت من رجل إلى امرأة وبدأت اللعبة، بدأ "نزار" المحادثة:

"السلام عليكم أختي 'أميرة بحجابها'، وسأكتفي بمناداتك "أميرة".. رقق نزار صوته وخفضه ليقوم بما يشبه الإغراء، ثم تصنع ضحكة رنانة ليضفي طابع المرح.

أجبته وأنا أتصنع الخجل:

"وعليكم السلام، لا أدري كيف أبدأ، لكني عادة لا أتحدث مع الأجانب، وددت سؤالك عن أمر يشوش تفكيري، وقد توسمت فيك الحكمة فهلا أرشدتني؟"

"أنا أيضًا لم أحدث فتاة قط، لكن أدبك وأخلاقك، دفعاني للتواصل معك دون شعور، تفضلي أختي كلي آذان صاغية".

"العبادات التي توارثناها عن الأجداد، من صلاة وصيام وحج، كيف أعرف أنها حقيقة، وأنها ليست طقوسًا متوارثة مزيفة؟"

انطلق نزار في كلام مفصل بشكل مدهش لساعة كاملة دون أن يشعر بالتعب، وهو يشرح ويفصل في الموضوع ويأتي بالحجج الدامغة والبراهين القاطعة، يحاول فيها إبهاري، والحق أني انبهرت حقًّا بعبقريته وأنا رجل.. فما بالك بالمسكينة "حياة" صاحبة الإحساس المرهف والقلب المتعطش لنبرة حنان وحب.. وقعت "حياة" في شباك محتال خطير.

ختم نزار كلامه بهذه العبارة:

"حقيقة يا أميرة، ارتحت لك كثيرًا، كأني أعرفك منذ زمن، ويبدو أنك "كريمة محتد" أحترم خصوصيتك في عدم الكشف عن اسمك الحقيقي، لكني سأتشرف حقًّا بمعرفة فتاة خلوقة من مقامك".

أجبته متصنعًا الارتباك:

"بارك الله فيك، حاليًّا لا يمكنني كشف الستار عن شخصيتي لكنك ستعرف عني كل شيء في مقبل الأيام، أشكرك على شرحك المفصل، وحججك المقنعة، وأستأذنك الآن".

"إذنك معك يا أميرة، رافقتك السلامة، أتطلع لمهاتفتك في فرصة أخرى".

"إن شاء الله، مع السلامة يا.. نزار".. ثم تصنعت ضحكة خجلى لأوهمه أني معجبة به، فضحك وهو لا يعلم أنه يغازل رجلًا.

حياة

بين زوج لا يشاركني الفراش إلا بشق الأنفس.. والبعيد "نزار" الذي عذبني بالصمت وسرق القلب، جاء درويش لينتشلني من دوامة العذاب ويمنحني قلبه الكبير.

لم أعد أدري أي مسلك سأسلك، وأين سأبقى، وإلى من سأنتمي، لكن درويش ينادي عليَّ دون كلمات، لأكون بجواره، فأعيد زهرة عمره، ويعيد لقلبي خفقانه..

ما زال "نزار" هاجسًا ملحًّا في الرأس، وحين أقول "هاجسًا في الرأس" فقد أخرجته من قلبي بعملية جراحية عسيرة، ما زلت منها ذاهلة عن نفسي.

"نزار " الذي اختنقت حبًّا به، ونثرت حبه في مذكرات، وقصاصات ورق، ودفنت نفسي بين كتب وروايات.. لم أعد أحبه، أو هكذا ظننت.. إلى أن جاء ذاك اليوم الذي حدد فيه موعدًا للقاء بيننا، أول لقاء سيجمعنا.. كنت خائفة أن يفتضح أمري، اشتريت هاتفا نقالا

يصلح للمكالمات فقط، جمعت المذكرات التي دونتها من أجله، وبعض الهدايا البسيطة.. اتفقنا أن نلتقي في مقهى غرناطة.. انتهزت فرصة الصباح، الأبناء في المدرسة، والزوج في العمل، ولم أخبر درويش، حتى لا يغضب مني، صعدت سيارة أجرة إلى قلب المدينة، ترجلت نحو مقهى غرناطة، وفي طريقي، لمحت عيني، صيدلية اسمها "صيدلية الشفاء" فقلت في نفسي، أتراني أحتاج عقَّارًا مضادا للإدمان، قبل أن ألقى سارق الفؤاد؟

"نزار" أريد أن أنساك، أن أمحوك من أحلامي، أن أكرهك بكل ذرة من ذرات كياني، حتى يحل الربيع على أرضي، لكني في كل مرة أحاول نسيانك، تجتاحني أكثر وأكثر، أذاك سحر فيك، أم عمًى فيَّ؟ بقيت في صمتك حتى ظننت أنك يئست واستسلمت وأني تخلصت منك للأبد، لكنك ما زلت تلاحقني، أو بالأحرى تلاحق والدي..

مضيت نحو حتفي بقدمي، عقلي وضميري يصرخان: "تراجعي، عودي".. وقلبي يجرني جرًّا نحو الهاوية.. أوصالي ترتجف، رأيته من بعيد واقفًا قرب مقهى غرناطة، بقامته الطويلة، كما كان يبدو تمامًا في الصور، دق قلبي بعنف، تصبب العرق من جسدي، شريط الذكريات عصف بذهني منذ أن تسلل إلى مكالمتي الهاتفية.. حملت في يدي اليمنى حقيبة، وفي اليد اليسرى الهاتف النقال، وحين لمحته حاولت ألا أظهر لهفتي

عليه، ومشيت بخطًى ثابتة، لكن جسدي كان يرتعش ارتعاش عصفور بلله القطر من شدة الشوق واللهفة لكشف ستار المجهول عن "نزار"، عن سارق القلب.. اقتربت من هالته أول مرة، تحولت إلى تمثال متجمد، ذهلت عن نفسي وعن الدنيا، أأنا حقًّا أقف أمام "نزار"؟ في البداية، لم أتمكن من رفع بصري نحوه، ثم سمعت صوته، يقول لي: "السلام عليكم حياة، لا بأس عليك؟" لأول مرة، أتطلع لعينيه مباشرة، بعد عشر سنوات من التساؤل والفضول والرغبة في اللقاء، لأول مرة، أتطلع لعينيه، ودون أن أشعر انجرفت دموعي كالشلال، وأفسدت كل مقاومة وكبرياء.. قد قرأت الحب في عينيه، واللهفة، والشوق، والرغبة، رباه، "نزار يحبني حقًّا" ركبتاي لم تعودا قادرتين على حملي، وقعت أرضًا، فهب نزار نحوي ينتشلني، ويرفعني ليجلسني في أول مقعد، الماكر، استغل الموقف ليلمسني، شعرت بارتجاف يديه، واجتاحتني مشاعر طاغية في الاختباء داخله، وليس أي اختباء، أخجل حتى أن أحدث نفسي بالشعور، اختباء يلغي كل السدود والقيود، يفتح الأبواب المغلقة، يكشف الأسرار المحتجبة، يشتعل باحتراقه، وينطفئ معه، ليشتعل مرة ومرتين وثلاثًا، حتى يرتوي لحد يفوق الجنون، ويخرج مكنونات الصدر كلها، ويصدح بآهات الغرام لتلون الشفق ساعة الفجر، بعد ليلة صاخبة، تغرقنا بلذات لم نذقها قط ولم نخبرها قط، كأنها من جدتها ودهشتنا بطعمها، شراب من الجنة.. وزاد من إذكاء نار

الجسد عطره الفرنسي، آه من عطره، حين شممته جن جنوني، ورغبت لو أني أختطفه وأضعه في صندوق وأحتفظ به لنفسي.. يا لي من ناكرة للجميل، يا لزوجي المسكين، أو بالأحرى يا لي من مسكينة لأعيش كل هذا وأتورط في كل هذا..

جلس قبالتي، يتأملني بعينيه الساحرتين، وأنا أسترق نظرات خجولة نحوه دون كلام، مر علينا النادل، طلب لنفسه قهوة وهلالية بالشوكولاتة، وطلب لي شايًا منعنعًا وهلالية أخرى، بقينا صامتين فترة من الزمن، ثم بدأ يحدثني بصوت مرتعش، وعبرات متقطعة، ويحكي لي عذاباته، ومعاناته جراء استحالة الوصال بيننا، وأنه كان سيعتني بأبنائي جيدًا، وسيساعدني لتحقيق أحلامي، بدأ يستعرض لي ألبومًا من الصور ضم لقاءاته مع المشاهير، وأراني صورة له تجمعه بوالدي، ثم في حركة غير مسبوقة، أمسك يدي، وبدأ يفركه بكفه ببطء، حتى أصابني الخدر، كأني سقيت الخمر، ثم اقترب مني وهمس في أذني، "أحبك يا حياتي، فهلا منحتني شرف عناقك فقط في مكان بعيد عن الأنظار؟" دفعته لإبعاده لكنه كان قويًّا لا يمكن زحزحته، وحتى أتخلص منه قلت له: "حسنًا، فيما بعد".. أجاب بهمس مغرٍ: "بل الآن، آخذك إلى أوتيل فخم، أعانقك عناق عاشق متيم، ونفترق وفي كل منا شيء من عطر الآخر".. أجبته بحسرة: "لا يا نزار لا أستطيع".. أجابني برجاء ونظرات حزينة: "أيرضيك أن أقطع كل هذه المسافة من أجل حديث عابر، دون

أن أحضنك وأشبع منك وأشتم أريجك؟ لا أريد فراقًا بلا معنًى، أريد أن آخذ عطرك معي يا حبيبتي، حياتي حبيبتي، حبي وعشقي وعشيقتي، أنا الآن سأبوح لك بمكنونات قلبي بلا خوف وبلا خجل، وكيف يخجل الإنسان من نفسه، من روحه، وأنتِ نفسي، وأنتِ روحي.. الآن، والآن فقط عرفت كيف يكون للروح توأم، وكيف يكون للنفس نصف آخر خارج الجسد.. الآن أنا أتلهف شوقًا لنلتقي تحت سقف واحد، لأضمك إلى صدري، ليلتحم جسدانا، حتى نصير جسدًا واحدًا وروحًا واحدة.. عسى أجسادنا تذوب معًا كما ذابت نفسي في نفسك.. كيف أصف لك مدى اشتياقي لك، كيف أصف لك جوع جسدي ليلامس جسدك، كيف أصف لك عطش كل ذرة في كياني لتلامس كل نقطة في جسدك.. آااه.. ليتك تعلمين، ليتك تفهمين، ليتك تشعرين بما أشعر به، ليتك تدركين كيف أراك، كيف أرى تفاصيلك التي تصيبني بالجنون، كيف أرى جسدك الناضح بكل معاني العشق المجنون، المصيب بالسُّكْر.. آااه يا حياة، ليتك تعلمين، كيف يفجر صوتك في مسامعي كل مشاعر الرغبة المكبوتة، التي لا ينطق بها سوى التحام الجسد بالجسد، وملامسة الجسد للجسد، وارتواء الجسد بالجسد. آااه يا حياة، أنت تتهمينني أني خبيث ولعوب، ذلك فقط لأنك لا تعلمين، لأنك لا تفهمين، لأنك لا تشعرين بما أشعر.. آااه يا حياة لو تتلبسين جسدي وتأخذين قلبي وعيني وتنظرين بهما إلى نفسك ولو لثوانٍ قليلة، حينها

فقط ستعذرينني.. حينها ستدركين أن الأمر ليس مجرد رغبة عابرة.. ستدركين أن الأمر هو العاشق والمعشوق، القاتل والمقتول في جسد واحد.. أما أنا، فأنظر إلى شفتيك، وأذوب شوقًا لأضع شفتي عليهما، حتى أجعل أنفاسي في أنفاسك، وأمتص من شفتيك رحيق الحب وأذيقهما رحيق شوقي.. سآخذك لعالم آخر، على وعد ليكون لنا لقاء آخر لنكمل معًا أنشودة الجسد".

وضعت يدي على أذني وانتفضت من مكاني وأنا أكاد أصرخ وألفت الأنظار: "قلت لا أستطيع، لا أستطيع".

بقي نزار واجمًا فترة من الزمن دون أن يتكلم، وأجبته بصمت مقابل صمت، وضع أمامي كيسًا به هدايا، وأخذ كيس الهدايا والمذكرات التي جمعتها لأجله.. وجَّه إليَّ نظرة طويلة ممزوجة بالعتب والحسرة والحزن، ثم نطق أخيرًا: "صورة تذكارية على الأقل"، تنهدت بعمق، دمعت عيناي ونفسي ترجوه بصمت ألا يذهب، قلت في نفسي: "صورة تذكارية واحدة تجمعنا لن تضر أحدًا". ثم أجبته بشق الأنفس: "لا بأس".

درويش

استيقظت باكرًا، كتبت في تدوينة: "من اغتر بالأمل ترك العمل".. فأجابتني حياة في تعليق: "العمل مخ العبادة.. وهو السبيل إلى نجاح الأمم.. تلك الروح التي آمن بها الغرب وضيعها الشرق.. فنجح الغرب رغم فسادهم.. وغرق الشرق رغم ظنهم صلاح حالهم".

تحدثنا قليلًا، قبل أن أخرج، كانت متحمسة لفكرة البقاء في البلد وعدم الهجرة، حياة التي حملت حقيبتها هاربة نحوي ذاك اليوم، تريد أن تظل جذورها في بلدها.. حياة بدأت تتصالح مع محيطها رويدًا رويدًا، وتسمح لشعاع الشمس أن يتسلل إلى قلبها المنهك، حياة قررت أن تعيش بإقدام الغرب، وروح الشرق، وتكون شعاع أمل في مدينتها تطوان، هذا ما حاولت أن تفهمني إياه، لكني ما زلت أشك أنها تتواصل مع نزار، وأنها تخفي الأمر عني، أتمنى أن تُشفى من داء العشق، وتعيش لأجل أبنائها وزوجها، لا أريدها أن تتأذى، وهي الآن قطعة من قلبي وروحي.

ارتديت بذلتي الرياضية، وتوجهت للنادي، حتى أجدد طاقتي، وأحافظ على لياقتي البدنية التي أعتز بها كثيرًا.. وهل للرجل إلا طاقته ولياقته وقوته؟

كنت مدعوًّا للغذاء أنا وزملائي في العمل، وكانت المضيفة زميلة لنا، قدمت لنا وجبة نحبها جميعًا، السمك الإسكتلندي المقرمش مع رقائق البطاطس الرقيقة. ولم تنسَ تحضير الصلصة البنية الممزوجة بخل الشعير المعروفة في "إدنبرة" باسم "صلصة الشيبي".. صلصة تجعل حليمات الذوق تتراقص مع لحن النكهات.

قضيت وقتًا ممتعًا مع الأصحاب، عدت للبيت، وجدت هاتفي مليئًا برسائل نزار، الذي يكذب على حياة ويقول لها أنه لا يستخدم الماسنجر، ليعذبها ويجعلها تتعلق به وتشتاق إليه، إحدى ألاعيبه الرخيصة للإيقاع بها في حباله. لم أجبه، تركته يستوي على نار هادئة، حتى أجذب منه أقصى ما يمكن من المعلومات، كان يرسل الكثير من الصور، وأنا أجمعها في أرشيف مع الرسائل الصوتية والنصية، وبعد ثلاثة أيام من الإلحاح والاتصالات أجبت على إحداها، كاد يطير من الفرح، شغلت مغير الصوت ليحوله إلى صوت امرأة، وشغلت برنامجًا يسجل المكالمة الصوتية وتركته يعبر بكل أريحية:

"أميرة، قد غرقت في غرامك، وأحببتك قبل أن أراك، أحلم أن أضمك بكل قوة، وأقبل جيدك المعبق بريح المسك، أيتها الأترجة الطاهرة، دعيني أقتبس من خمرتك رشفة صغيرة تروي ظمأ العاشق".

كان شاعرًا مجيدًا، ومغازلًا متمرسًا، يتقن فن الإغواء، تركته يتحدث حتى وصل إلى الخيال الجامح:

"أتمنى أن نكون معًا تحت سقف واحد، في عش الملائكة، أداعب جيدك، وأرتشف خمرتك، وألتهم الحلوى من بطنك الرطيب، ثم أتوسد الجُلَّنار، وأرتشف منه شرابًا معتقًا يقودني إلى الجنون ويجعلني أستسلم تحت سطوتك يا فارسة الميدان، تمتطين جوادك، وتفعلين به الأفاعيل، صعودًا نحو برزخ النشوة، وهبوطًا إلى قعر البحر حيث تلتقمين اللؤلؤ بشفاهك الناعمة الشهية المسكرة، فتحملينني إلى عالمك المشتعل نارًا وحبًّا وجنونًا، سيكون عشنا مختبرًا للنكهات، نكهة التوت، ونكهة الشوكولاتة، ونكهة الجبن المحلى، سنذوب في نار العشق ونحترق، ثم نولد من بين النيران لنعشق مرة أخرى إلى ما لا نهاية".

سجلت كل الكلام الذي كتبه، والمقاطع الصوتية التي أرسلها، والصور التي شاركها، واحتفظت بنسخة منها في الحاسوب لتكون حجة عليه في حال ابتز حياتي.

رن هاتفي فجأة، قفز اسم ليندا على الشاشة، اتصالها في هذه الساعة المتأخرة أقلقني:

"ألو، صديقتي كيف حالك؟"

"أنا بخير، أيمكننا أن نلتقي في المقهى المجاور؟ لدي ما أقوله لك مباشرة".

"حسنًا سآتي حالًا".

كنت مرتديًا منامتي البنية، ألقيت على ظهري معطفي الأسود الكشميري الطويل على عجل، واخترقت جنح الظلام في تلك الليلة القارسة من ليالي أبريل، وقد انتابني فضول شديد لمعرفة الأخبار التي تحملها "ليندا".. كانت تجلس على مقعد خرج المقهى وقد ارتسمت على محياها ابتسامة عريضة، وعيناها كانت تلمعان، كعيني قطة تمكنت من طريدتها:

"أبشر يا درويش".

"هات ما عندك يا صديقتي".

"ذاك المدعو نزار".

"نعم ما به؟"

"اسمه الكامل نزار أحمد السوسي، أستاذ في مادة اللغة العربية بالصف الثانوي، شاب ثلاثيني، ذو بنية رياضية، طوله متر وثمانون سنتيمترًا، بشرته بيضاء، يقضي ساعات إضافية بالموازاة مع عمله في العمل لصالح مكتب تحقيقات بالرباط، معدل ذكائه 165 درجة، يمضي وقت فراغه في مطالعة الكتب، والتدوين على صفحة الفيسبوك، ومغازلة الفتيات على الهاتف ليلًا، حتى يقعن في حبه ويشترين له الهدايا أو يسرق منهن قُبلًا عابرة.. لا يدخن ولا يشرب الخمر، لكنه نصاب محترف، يبتز ضحاياه من الفتيات عاطفيًّا، والمفارقة العجيبة، أنه مقتنع أنه مواطن صالح، ويلقي باللوم دائمًا على ضحاياه من النساء أنهن من أغوينه وجذبنه.. والخطير في الأمر أنه يحتفظ بملفات لكل فتاة تواصل معها، تتضمن الصور التي شاركتها معه، والمقاطع الصوتية، والحوارات المكتوبة على تطبيقات الدردشة، سواء تطبيق الواتساب أو الفيسبوك، أو التيليغرام.. وحياة يحتفظ لها بملف به معلومات خطيرة عنها، تخيل أنه يملك نسخة عن عقد زواجها، ورقم بطاقتها الوطنية، وصور أفراد عائلتها جميعًا، لكنها لم ترسل له قط أية صورة عارية ولا حتى دون غطاء رأس، كل صورها محتشمة للغاية، ولم تعطه عنوان بيتها.. لكن مع ذلك، يبدو أنها جنت بحبه لتشاركه معلومات خاصة جدًّا عنها.."

"شكرا لك، هذه المعلومات تكفي وزيادة".

"العفو.. هذا أقل واجب".

ماذا فعلت بنفسك يا حياة، أيعقل أنك ساذجة لهذا الحد؟ جائعة عاطفيًّا لدرجة أن تستجدي عطف مجهول، وتشاركيه كل أسرارك عله يرضى؟ لكني لن أدعك وحدك، سأدعمك للنهاية، لأني ابتُليت بك، وأحببتك بهفواتك وروائعك، أنت طفلة مجنونة لا تقدر العواقب، وقد ألقتك المقادير إليَّ، فليكن ما يكون، أنا معك دائمًا.. نعم صرت مهووسًا بحياتي، أحدث طيفها، أعاتبها، أتألم لحالها، أريد مساعدتها بأي شكل من الأشكال..

الفصل الثاني عشر

من أحياها؟

حياة

لم أستفق من الصدمة إلا ووابل من الصفع والشتم والركل قد انصب عليَّ، زوجي قد تملكه السعار، وانهال عليَّ يعنفني أشد تعنيف، بعد مقاطع فيديو أُرسلت إليه وإلى والدي، جرني من شعري ووجه نظراتي الزائغة نحو شاشة هاتفه، والدم يتقاطر من أنفي وفمي:

"رغم كل ما حصل، التقيت بالكلب نزار، رغم أني صفحت عنك ولم أشأ فضحك، كلبك نزار فضحك يا ذليلة النساء".

الخبيث، قام بدمج صورتي في برامج ذكاء صناعي متطورة، وغطى وجهه منها وجعلنا وكأننا نتبادل القبلات، وأرسل مقاطع صوتية لوالدي يهدده، إن هو لم يمكنه من المنصب الذي يطمح إليه ستصبح الفضيحة الصغيرة، فضيحة كبيرة..

"أنا لم أفعل هذا، الفيديو مزور ويمكنك تسليمه للخبرة، والله العظيم لم أفعل".

"عن أي خبرة تتحدثين؟ أنت التقيته، حتى وإن لم يحصل بينكما أي شي، أنت قتلت أية فرصة إصلاح بيننا بلقائه، يا شريفة، يا عفيفة.. انتهى الكلام.. نحن بسببك في موقف ضعف، لا أستطيع العيش مع خائنة.. أنت طالق".

"طالق؟"

"أنت طالق، اجمعي أغراضك وانصرفي قبل أن أرتكب فيك جريمة شنعاء، ولتعلمي أني سأنتزع الحضانة منك بتهمة الإهمال المفرط بحق الأبناء، وقضاء ساعات طويلة أمام شاشة الحاسوب، أنا أراقبك منذ مدة، وأعلم أنك ما زلت تطلين على صفحة نزار الفيسبوكية، وتتبادلين معه الأحاديث والأدعية، يا مؤمنة، يا ذليلة النساء، قلت تلك آثار الهوس، ستتلاشى وحدها، وتعودين إليَّ بإرادتك، نعم قسوت عليك، لأختبر صدق حبك لي، لكنك لا تحبين أحدًا، ولا تملكين القدرة على الحب والعطاء، ونزارك الكلب، حائط مهترئ، في أول سقطة لك، سيولي الأدبار هاربًا، واعلمي أنه لا رجل في هذا العالم سيقبل بك، ارحلي وأنت تلوكين خبز الندم اليومي، ارحلي صاغرة ذليلة، ولا تعودي أبدًا".

مسحت دموعا اختلطت مع دماء وجهي، جمعت بعض الملابس، في حقيبة، وتوجهت إلى والديَّ.. لكنهما رفضا استقبالي وأغلقا الباب

في وجهي.. يا ترى ما العمل؟ إلى أين أذهب؟ لعنة الله على نزار من اليوم الذي تسلط فيه على حياتي وتطفل على منشوراتي، واستدرجني استدراجًا متقنًا أقرب إلى الجريمة الكاملة، خرج منها نظيف اليدين، وخسرت بسبب غبائي كل شيء زوجي، أبنائي، أبي أمي، خسرت كل شيء.

لم أشعر إلا وأنا أهاتف درويش:

"د.. د.. د.. رويش".

"ما بك يا حياة، لم تبكين، ما الذي حصل؟"

"تخلى عني الجميع يا درويش، أنا في الشارع مع حقيبة سفري لا وجهة لي أقصدها.. سلبت كل شيء، أبنائي، أهلي، كل شيء يا درويش".. وانفجرت باكية

"لا تبكي حبيبتي لا تبكي، أنا معك، سأحجز لك تذكرة سفر، وأجهز لك فندقًا تقيمين فيه لترتاحي، ثم نرى ما الخطوة التالية".

"لقد رمى عليَّ الطلاق.."

"أنا أتزوجك يا حبيبتي، اقبلي فقط".

انحبست دموعي حينها، وأنا غير مصدقة ما أسمعه، درويش يعرض عليَّ الزواج، هكذا، ببساطة.. انمحت كل معالم الزمان والمكان من أمامي، نسيت خساراتي كلها، نسيت كل شيء، حين قال شاعر قلبي كلمته المقدسة "أنا أتزوجك".

أيقظني صوته من سحابة السعادة:

"ها؟ ما ردك؟"

"ردي لن يكون في الهاتف، انتظر حتى ألقاك".

"هذا المساء توجهي للمطار ستجدين مقعدك محجوزًا، رحلة ممتعة يا عروسي الموعودة".

"إلى الملتقى حبيبي".

"إلى الملتقى حبيبتي".

درويش

هل عرضت عليها الزواج قبل قليل؟ لا أكاد أصدق، انتابتني قشعريرة، صرت فجأة أعني لحياة كل شيء، أمها، أباها، زوجها، أبناءها، هذا كثير.. كثير جدًّا لأستوعبه، تمنيت لحظتها أن أفر من جلدي، هل سأسعدها؟ أخشى أن أخذلها، أن أحن إلى الليالي الحمراء، أن تضبطني ممسكًا كأسا بيد، وحسناء إسكتلندية بيد أخرى، لكني سأتزوج، لا رجعة، لن أهرب، لن أتملص، سأكون رجل الموقف، سأساندها لآخر رمق، كل ذرات روحي تنادي عليها، تشتاق إلى أنفاسها، وعطرها، وضحكتها، وبريق عينيها، من سيحن إلى تلك الليالي قبالة أنثى تلغي جميع نساء الكون؟

استيقظت من أحلامي اللذيذة، ثم حملت هاتفي، لأطوق الخناق على نزار، شغلت برنامج الذكاء الاصطناعي، ليغير نبرة صوتي، واتصلت به باسم "أميرة":

"أميرة أهلا يا أترجتي الطاهرة، يا زهرتي الخجولة، يا زهرة عمري، اشتقت لصوتك، لهمساتك، التي تحرك كل عاطفة بداخلي، وتثير كل حواسي، أين غبت عن عاشقك المتيم، الذي يرجو لقاءك".

"لقائي؟ كيف وأنا لا أعرف اسمك الكامل، أخاف".

"لم الخوف، أأنا غول لألتهمك؟"

"لا، لكن لا يعقل أن ألتقيك وأنا أجهل اسمك الكامل".

"ستعرفين من أكون بالتفصيل الممل، لا أستطيع إخبارك بالهاتف، لأسباب تتعلق بعملي الحساس".

هنا تحدثت بصوتي الطبيعي:

"نزار أحمد السوسي.. هذا اسمك الثلاثي الكامل أيها المحتال البغيض".

"م.. م.. من معي؟"

"أنا كابوسك الأسود الذي سيلاحقك حتى يفسد عليك حياتك كلها ويفضحك إن لم تبتعد عن حياة.. أعرف عنك أمورًا أنت نفسك لا تعرفها".

"ماذا تريد؟"

"أن تبتعد عن حياة وأهلها وأبيها، وإلا سأنشر غسيلك بسهولة أيها الشيطان".

"طيب طيب.. أ.. أعدك.. لن أقترب.. اغفر لي".

"أما الغفران، ربما حتى السماء لن تقبله منك، حياة تعاني بسببك وأنت حر طليق، محبوب من أهلك وأصحابك وجيرانك، سحرتهم بلسانك، لكنَّ شيطانًا خبيثًا يختبئ بداخلك، دمرت عالمها، وتنعمت في عالمك، كن على يقين أنك مراقب، حتى إن غيرت رقم هاتفك، حتى وإن هاجرت إلى أقاصي الأرض، عيوننا ستتبعك مهما حللت وارتحلت، على الأقل حتى لا تسول لك نفسك الاقتراب مجددًا".

"قل لي من أنت؟"

"أنا كابوسك الأسود".. ثم أقفلت الخط في وجهه..

بعدها أجريت بحثًا سريعًا على الهاتف لأحجز حجرة مريحة لحياتي في أحد فنادق إدنبرة، ووقع اختياري على فندق جميل اسمه **Dunstain**، مصمم على الطراز الفيكتوري الذي تحبه حياة.. ممتاز، ضغطت على زر الحجز، وأنهيت هذه المهمة، ثم بدأت في جمع الوثائق

الضرورية لإبرام عقد الزواج، كل هذه الطاقة والحماس اجتاحني وأنا أحلم باليوم الذي سيجمعني بحبيبة العمر..

تخيلتها بملابس سهرة حمراء، ذات ثوب لامع، وشعر كستنائي منسدل بنعومة على كتفيها العاجيين، تستقبلني في بيتي الصغير بابتسامة ساحرة، وعينين باسمتين، تطوقني بذراعيها البيضاوين الممتلئتين فيغمرني أريج عطرها الجذاب، وتهمس في أذني بصوتها الرنان، أحبك يا درويشي.. سأضمها بشوق كلما عدت من العمل كأني عدت من سفر طويل كل يوم، سأقبلها بشغف على شفتيها الشهيتين، وسألتهب حتى أتجرد من ثيابي وأجردها معي، لنستحم معًا ونقفز معًا في عش حبنا، ونغرق غرقًا لا نطلب منه النجاة.. آه يا حياة ستكونين زوجة رائعة جذابة، ستكونين مصباحي المنير، وسأغمرك حبًّا وحنانًا وفرحًا.. ولن أدع الدموع تنسكب من عينيك العسليتين أبدًا..

حياة

أنا التائهة في لحن صوتك يا حبيبي درويش، عائدة إليك..

ألقيت نظرة أخيرة على تطوان من نافذة الطائرة، ذرفت على الماضي دمعة أخيرة، ورميته وراء ظهري، لأستقبل نصيبي من السعادة الموعودة في مملكة درويش، كان دائمًا ينصحني أن أعتني بزوجي، أن أشبع حواسه، أن أجعله يحبني مجددًا، وكنت أطبق نصائحه حرفيًّا بلا فائدة.. كان يخبرني أنه ليس رجلًا مثاليًّا، كان يقول إن له الكثير من الأخطاء، وأنه يحب النساء، وأنه ليس كاملًا، لكنه لم يدرك بعد أن فيه شيئًا واحدًا أحتاجه لأزهر، وحين أزهر، سأجعله يرى في كل النساء، وأجعله يكتفي بي ويسكنني، كان حلو اللسان، كان حنونًا، كان عاقلًا، كان مفعمًا بالفرح والنشاط كأنه شاب عشريني رغم بلوغه الأربعينيات، كان ما ينقصني، كان يكملني، كان مظلتي في شتاء أيامي ومنديلًا أبيض معطرًا يمسح دموعي، وبسمة رضًا يرسمها على شفاهي..

كان لي وطنًا في عز أزمتي، وأنا نذرت أن أكون له جارية أقبِّل التراب الذي يمشي عليه..

وصلت إلى المحطة، وجدته في استقبالي، بابتسامته العريضة، وصدره المفتوح، هتفت بعبرة مخنوقة:

"درويش".

ركضت نحوه كالمجنونة، تاركة حقيبة سفري وحدها، وارتميت في حضنه بدموعي وحسراتي، وآلامي، وخيباتي، فغلفها كلها بدفئه وحضنه، وأنساني كل بؤسي بأنفاسه الرجالية المسكرة، أردت أن أقول نعم لعرض الزواج، لكنه اعتبر إقبالي على أنه نعم، وقبل أن أنطق، قبلني قبلة حارة على شفاهي، أشعلت كل جوارحي نورًا ونارًا وحبًّا وهيامًا، واخترقت بلا مقاومة حدودي وقيودي وخجلي وحذري، واختفت معالم الزمان والمكان، وتناهت إلى سمعي أنغام معزوفة "باخ" **Bach G minor** وأنا أتنعم بحضن حبيبي درويش، ودون شعور رقصنا على إيقاعها معًا، كأنه تلبس روحي، كأنه يصغي لأنغامي، كأننا صرنا واحدًا، أين كنت يا درويش، تأخرت كثيرا حتى اهتديت إليَّ..

أخذني إلى فندق جميل، ذي طراز فكتوري، قبلني قبلة طويلة مسكرة، ونظر إليَّ بعينيه البحريتين الحنونتين، وهمس في أذني بصوت خافت أذهب عقلي وزلزل كياني: "أحبك يا حياة".

تمنى لي حبيبي ليلة سعيدة، وانصرف إلى بيته الصغير الذي أتشوق أن أحل فيه زوجة له..

لم تغمض جفوني، اتصلت بدرويشي:

"حبيبي، لم أتمكن من النوم، أضرمت بقلبي نارًا وتركتني أتقلب في فرشتي شوقًا إليك".

"إن شئت آتي إليك الآن وأذيبك وأطفئ لهيبك".

"ليس الآن.. بعد العقد، وقد غفرت قبلتك الأولى، فتريث ولا تشعل أشواقي أكثر حتى لا أجن، فطعم القبلة تحت سقف الحلال له نكهة خاصة ممزوجة بمشاعر أريدك أن تعيشها معي وحدي، فأنت لي وحدي، وأنا لك كل النساء فلا تستهن بسحري".

"معي ستنسين العالم، معي ستعيشين متعًا لم تشعري بها قط ولم تختبريها قط، فكوني لي أمة، أكن لك عبدًا".

"سأعتني بك كما لم تعتنِ عاشقة بعاشق، لن أمل ولن أُمل، سأكون قهوتك الساخنة في ليالي الشتاء، وقطعة الشوكولاتة السوداء التي تحلي قهوتك، ومعطفك الصوفي الدافئ، ولمستك الحنونة، وعطرك الربيعي، وفصولك الأربعة، سأستقبلك على باب عشنا كأني أستقبل جنديًّا عاد من حرب طويلة كل يوم، سأكون لك الأم والأخت والزوجة والحبيبة والعاهرة والجارية والراهبة، فازرع في ثنايا قلبي بسماتك لأزهر حياتك بكل وعودي وسحري وعطاياي".

"آه يا حياة لا أشبع من تقبيلك".

"حتى أكون حلالك".

"شوقتني لقبلة الحلال هذه، ذقت كل أنواع القبل إلا قبلة الحلال".

"أعدك أنها ستكفيك وتشفيك وترويك فلا تتعجل يا حبيبي، ففي النفس حاجات، لكن الصبر مفتاح الفرج".

"أريدك بكل جوارحي".

"وأنا أكثر، لكن حتى يستمر حبنا في الدنيا والآخرة علينا أن نطوي الماضي بعثراته وزلاته، ونبدأ معًا صفحة بيضاء أنا وأنت، أن نغسل قلوبنا من أي حزن أو تعلق خارج إطار الحلال، ونعيش السعادة في محراب من النور والطهر والعفاف، كأننا ولدنا من جديد".

"أنت الولادة يا حبيبتي".

"وأنت الشفاء يا حبيبي، تصبح على خير".

"تصبحين على خير يا زهرة عمري، يا حياتي، يا عسلي، يا سُكري وطهري، ليلة سعيدة لروحك الحبيبة".

"ليلة سعيدة يا حبيب الروح".

طلبت من درويشي أن يبقي الهاتف مفتوحًا، ونمت على صوت أنفاسه وهو غارق في نوم ملائكي هادئ، وبت أحلم بثوب الزفاف الأبيض، وحياتي الجديدة مع شاعري الرومانسي.

بعد أسبوع من إقامتي في "إدنبرة" توصلت برسالة نصية جافة من طليقي، أن ورقة الطلاق ستصلني في مكان إقامتي الجديد..

تنفست الصعداء، كأن صك حريتي قادم ليحررني من أصفاد العبودية والظلم والقهر والألم الذي عشته تحت وطأة ذاك الرجل، الذي ضن عليَّ بابتسامته وأغرقني بطلباته ولومه..

خرجت لأتمشى مع خطيبي درويش، أخذني في جولة ممتعة لحديقة قصر لورستون الهادئة الملهمة، أمسك بيدي، ابتسم لي ابتسامته المطمئنة، وتوغلنا معًا داخلها نسبر أغوارها ونكشف حجب سحرها وجمالها، كأنها جارية حسناء تلحفت بلحاف أخضر..

ها قد وصلنا القصر، وأمامه بقعة خضراء دائرية تتوسطها أزهار الخزامى.. يا له من مشهد مهيب، والشمس تحتجب وراء سحابة رقيقة كأنها عروس خجلى.. تخيلت للحظة أنني في حديقة يابانية ساحرة مثل تلك الحدائق التي نشاهدها في الدراما اليابانية التاريخية، وهي جزء من

حديقة القصر لها مدخل بني بالطراز الياباني القديم، تجد في مدخلها لافتة ترحاب تقول:

Welcome to the edinbrugh-kyoto Freindship Garden

كان درويش صامتًا طول الوقت، يستمتع بدهشتي من جدة المكان وروعة الطبيعة، فهو لم يأخذني لهذا القصر المرة الماضية، وقد أحببته لدرجة جعلتني أبتسم من شدة الفرح، وأنسى اسمي ورسمي..

حديقة يابانية التصميم، مترامية الأطراف، مريحة للأعصاب، مغرية للعشاق، فيها مساحات مشذبة بعناية، ومساحات حجرية رصت فيها حصيات بيضاء تحيط بعض الصخور..

الشمس تشع بنورها وتذهب وريقات الشجر، وصوت الأوراق الجافة المتكسرة تحت أقدامنا تصدر موسيقى شهية تمتزج بتغريد الطير، فنحسب أن الطبيعة تتهيأ لحفل زفافنا، رقت مشاعري، تبادلت نظرات شوق مع حبيبي، لم يتمالك نفسه، جذبني وراء شجرة، وهم بتقبيلي، فأفلت من بين ذراعيه متضاحكة وأنا أذكره: "بعد العقد فقط، ستحصل على قبلة حلال".. فأجابني مغتاظًا، وهو يحاول إمساكي وأنا أركض هاربة منه: "يا ظالمة، عذبتني معك، أتعبتني، أريحي حبيبك من رحلة التحليق وعجلي بالمكافأة، فهو عطش لرحيق شفاهك المعتق،

ألست خطيبك، ألا يحق لي".. أجبته بعد أن توقفت عن الركض بصوت هادئ "في شريعة العشاق يحق لك أخذي والتحليق بي نحو القمر، لكن في شريعة السماء، لا يحق لك حتى الإمساك بيدي، وقد غفرت لك الأولى يوم لقائنا في المطار، والثانية حين أوصلتني إلى الفندق وتمنيت لي ليلة سعيدة، لكن الأولى سأمنحها لك بكل جوارحي بعد العقد، قبلتك الحلال الأولى".

"لو تعلمين يا حياة كم أنتظر انتهاء العدة لأتزوجك".. أجبته وأوصالي كلها ترتعش "لا تتعجل، كل شيء بوقته حلو".. ابتسم لي ابتسامته المطمئنة وقال لي: "راحتك أهم عندي بالدنيا، ورضاك من رضاي، أنت مري وأنا أنفذ".. أشرت بأصبعي إلى بقعة خضراء ندية قبالة القصر "لنجلس هناك".. تبعني حبيبي درويش دون جدال أو نقاش، كم هو لين وهين، كم أحب طبعه هذا..

جلسنا على العشب، تعب درويش من المشي فتمدد ووضع رأسه على حجري وهو هائم غائب في خيالاته المحمومة معي، وأنا أحمر خجلًا كلما نظر إليَّ نظراته التي تحكي كل ما يعتمل بداخله.. قال لي بصوت غارق حبًّا وحنانا: "أسمعيني أغنية بصوتك العندليبي الساحر".. فغنيت له بالإنجليزية أغنية أثيرة على قلبي:

You are my sunshine, my only sunshine

You make me happy when skies are gray

You'll never know dear, how much I love you

Please don't take my sunshine away

أغمض درويش عينيه وغرق في نوم هادئ كأنه طفل وديع يتنعم بتهويدة أمه في سريره الصغير، انتابتني رغبة شديدة في ضمه وتقبيله، لكني وعدته ووعدت نفسي أن تكون قبلتي الأولى التي أمنحها له حلالًا طيبًا.

درويش

حياة قد ملكت روحي، واحتلت عرش قلبي، وعزفت على أوتاره سنفونية الربيع بكل مباهجه وأفراحه وألوانه، أصغيت إلى غنائها الجميل، وهي تصفني أني شمسها، وأني فرحها في أيامها الرمادية، وأنها تحبني حبًّا لا يمكن أن أتخيل مدى عمقه، وأنها ترجوني ألا أنتزع شمسها بعيدًا وأرحل..

غفوت قليلًا في حجرها الدافئ، فتحت عيني على عينيها اللتين لم تحيدا عن الغوص في روحي حتى أسرتني، غرقت في عينيها العسليتين حتى ضعت وتهت منها، لأهتدي إليها، وسألتها:

"حبيبتي، هل تذكرين قصة جميلة حدثت معك في طفولتك؟"

"نعم، ذكرى لذيذة لكن، أخاف أن تغار".

"لن أغار احكِ حكايتك يا شهرزاد".

"في أحد أيام الصيف الحارة، كنت أتجول مع والدي.." اختنقت عبرة حياة وانقلب الفرح حزنًا، المسكينة تذكرت أباها، ظننت أني حين

أحثها على سرد ذكريات جميلة من الطفولة ستبتهج، لكنها حساسة جدًّا، تبكي بسرعة، وتضحك بسرعة، جلست، وأخذتها في حضني، وتركتها تبكي ما شاء الله لها من البكاء، مسدت ظهرها ورأسها، ومسحت الدموع ممن وجهها القمري الجميل، وحتى لا تغضب مني، لم أقبل شفاهها رغم أنهما قد احمرتا جراء البكاء، فزدت بهما افتتانًا ورغبة في لثمهما، لكني أحجمت احترامًا لرغبة حبيبتي، أن تمنحني قبلتها الحلال بعد العقد المنتظر، قلت لها:

"لا عليك حبيبتي لا داعي للحكايات".

"لا بأس سأقصها عليك، فهي في النهاية حكاية جميلة".

"أنت جميلة الجميلات، وحكاياتك ليست إلا أثرًا من جمالك الرباني".

"درويشي، كم أحبك، يا أمير الأمراء.. حدثني خاطر من الطفولة أيها الأمير السعيد، أن الطفلة حياة كانت تتجول في المدينة الجديدة بتطوان، ولفت انتباهها دمية يابانية جميلة، ذات غرة مصففة تصفيفًا متقنًا، وشعر ليلي ناعم، وفستان زهري مزين بالدانتيل، لكن أباها لم يشترِ الدمية لها، فعادت مكسورة الخاطر إلى البيت، ومرت برهة من الزمن، دق على بابها صبي أسمر جميل العينين عريض البسمة طويل القامة، أهداها تلك الدمية وانصرف دون أن يطلب جزاءً أو شكورًا،

وبقيت الطفلة معلقة بطيف الصبي الغامض الذي أهداها دميتها اليابانية دون أن تعرف له اسمًا أو رسمًا".

توقف قلبي للحظة عن الخفقان، دارت الدنيا بي، أيعقل أن تكون حياتي هي حبيبة الطفولة؟ الأميرة اليابانية من مدينة تطوان؟ اغرورقت عيناي بالدموع، ذهلت حياة من تأثري، لم تستوعب، ارتميت في حضنها أبكي كطفل بكَّاء من تاه عن أمه سنوات طويلة..

مسحت على رأسي، وعلامات الاستفهام مرتسمة في عينيها الجميلتين القلقتين، أفقت من عاصفتي العاطفية وركعت على ركبتي وأنا أعترف لها:

"أنا صبيك المجهول، يا معشوقتي اليابانية، فهلا أعدت قلبي إلى ضلوعه، وأرحت هذا المسافر التائه من رحلة التيه بين أحضان النساء الفارغات أملًا في نسيان وجهك وبراءتك؟ أتصدقين؟ هي معجزة، ساقتني الأقدار إليك، رغم قسوتها علينا، لكن العبرة بالنهاية، أنا صبيك الغامض، أهديتك دمية، فأهداني القدر عروسًا تتساقط من جمالها كل النساء".

"أحقًّا.. أنت؟ أنت شمس سعادتي، في طفولتي، وحاضري، فكيف لي أن أرد جميلك؟ يا أبي وأخي وحبيبي ووطني، كيف لي.. لا أكاد أصدق.."

"وددت لو أقبلك لتبرد نار قلبي، لكني سأتجلد بالصبر الجميل، إكرامًا لحبنا الطاهر البريء، لم أتخيل يومًا أن تكرمني السماء بأسمى أمنية، وترزقني القمر بجلاله وكماله وبهائه وفتنته".

امتزجت دموعنا وضحكاتنا، وتعانقنا عناقًا طويلًا..

حياة

أنت بالكيمونو الرمادي.. وأنا بالكيمونو الزهري التقينا في حفل الربيع، وأشجار الكرز تمطر علينا تويجات الحب.. رق قلبي لك، شعرت بندائه، وظللتني بمظلتك اليابانية المصنوعة من قصب البامبو، احمرت وجنتاي خجلًا، وغطيت فمي بكم الكيمونو حتى لا تلمح ابتسامتي الخجلى، وهناك في ذاك الجسر الأحمر تحت ضوء القمر طبعت على شفتي برهان حبك فصرت لا أدري أأنت أنا أم أني أنت.. جلسنا تحت شجرة الكرز وجلست أمامنا مغنية تغني أغنية يابانية تقليدية: ساكورا.. ساكورا..

كل هذه الأجواء الخرافية هيأتها لي في حديقة قصر لورستون، لأذوب في حبك أكثر فأكثر، لترضي خيالي الياباني، لتكرم أميرتك اليابانية من مدينة تطوان، تلك التي منحتها لحظة من السعادة وهي طفلة، ومنحتها دمية يابانية، ولا زلت تمنحها السعادة.. تنازلت لها في يوم زفاف صغير جمعها بك، عن هواك المراكشي، وأرضيت هواها الياباني.. أنت يا أمير إدنبرة، قلبك قلب فلاح كادح، يدق معوله في

تراب مراكش الحمراء، وقطرات العرق تتقاطر من جبينه الطاهر، ويداك قد شقت الأتربة والجراح أخاديدها فيهما فرسمت خريطة الكفاح، وقلبك البدوي الفطري، يحب التين الشوكي، لأنه متمنع لا يمنح لبه وعسله إلا لمن تكبد العناء..

أوصالي مرتعشة، وأطرافي متجمدة، انتظرنا هذه اللحظة طويلًا..

أخذتني إلى بيتك الصغير، جلستُ على أحد الكراسي ووقفتَ تنظر إليَّ، فبادلتك نظرات خجلى.. توجهت نحوي، اقتربت مني..

رفعت رأسي من ذقني بلمسة حنونة، ووجهت إليَّ نظرات عميقة وأنت تبتسم وقلت لي: "أأنتِ خجلى؟" فزاد وجهي احمرارًا.. حملتني على جناح الحب بيديك الدافئتين وعيناك لا تفارقان عينيّ..

ارتعشتُ، حضنتني، ضممتني، شعرتَ بارتعاشي، وقلت لي:

"أيعقل أنك ما زلت محرجة مني؟".

أجبته بصوتي المبحوح:" نعم.."

"هل أسقيك عصيرًا، شايًا، قهوة؟".

"اسقني.. اسقني من رحيق شفتيك يا حبيبي".

"لكم أنا متشوق لقبلتك الأولى تحت مظلة الزواج، شوقي إلى أنفاسك الدافئة ينسيني كل عقارب الزمن..

أنت قمر الليلة، دعيني أشتم رائحة عطرك الذي يلف عنقك الجميل.. ورائحة شعرك المصفوف التي تفقدني كل قدرة على الابتعاد عنك.. أنت الجمال كله.. أدمنت صوتك الشاعري والنظر إلى عينيك الواسعتين كالخليج".

لففتني بجسدك، أزلت الحجب والأستار، وأنا أرتعش أكثر وأكثر، أسكرتني بلمساتك، ثم دون شعور مني، ضممتك بكل قواي، كأني ألوذ بقوتك ورجولتك، من ضعفي ورقتي الأنثوية، قبلت رقبتي، داعبت خصلات شعري، فسرت النشوة المحمومة في عروقي، وارتفعت حرارة الجسد، وفي تلك اللحظة، منحتك قبلتي الأولى. قلت لي وقد بدت السعادة على وجهك البشوش: "طعم قبلتك التي منحتني إياها روت روحي العطشى وجعلتني أشعر بالرضا والاكتفاء والرواء والغنى، كأني لم أقبل قبلك قط امرأة، وكأني بك المرأة الوحيدة التي خلق الله لها شفاهًا من روح، قد اكتفيت بك، فأنت الآن لي كل النساء".

كانت ليلة فريدة صرت لباسك، وصرت لباسي، صرت دثارك وصرت دثاري، وكنت فنانًا، عزفت على أوتاري مقطوعة الغرام في ليلة

سعدنا البيضاء، وألفت سنفونية تناغم فيها زئير أسد الأطلس، وهديل حمامة تطوان.

درويش

جاءت حياة من العدم، لتنقذني من التيه، وتعطيني فرصة للعودة إلى نفسي وأعماقي، معها وجدت الحقيقية، فهي كضوء مصباح تخلل ضلوعي في ظلام صدري، حتى مس زيت قلبي القديم الباهت فأضاء مرة أخرى.. هي الترياق، يزيل عني ما أصابني من تيه ونسيان ولامبالاة.. هي كما هي ببراءتها ومشاعرها وضعفها، كأنها رسالة جاءتني من بعيد، أو كأنها ملاك حل من السماء، ليذكرني بنفسي، بعد أن تركتها هناك في بلدتي القديمة مع أحزاني وخيباتي.. جاءتني حياة، كأنها حياة جديدة أو رسالة من الحياة.. رسم كلانا في حياة الآخر وروحه أجمل المشاعر، وأطهر المعاني وأسماها.. جذبنا بعضنا من دوامة النسيان، ضمدنا جراحنا، فكنت لها وطنا وكانت لي الكون كله.

دار بسمة للنشر الإلكتروني

دار مغربية، رقمية، تأسست في 2017

دار بسمة للنشر الإلكتروني من أهدافها مساعدة الشباب المغاربة والعرب على نشر إبداعاتهم، وإيصال أصواتهم وتغريداتهم إلى العالم كله، كما تطمح لاكتساح عالم النشر الإلكتروني في كل الأقطار العربية..

كما أننا –في محاولة منّا لتغذية شريان الثقافة– نسترشد بالضمير الحي من أجل نشر المحتوى الثمين، حاملين على كواهلنا رسالة التنوير الحقيقي، ومدركين كل الإدراك لقيمة القلم النبيلة، لذلك كنا حريصين على نشر كل ما هو قيّم. في دار بسمة للنشر الإلكتروني نساند المؤلفين وندعمهم لإيصال إبداعاتهم لملايينَ من القراء، ونرشدهم إلى آليات فنية تعينهم على تحسين أساليب الكتابة والإبداع. وتقريبا لهذه الغاية تقوم الدار بتنظيم مسابقات متعدّدة، والإشراف عليها مجانا من أجل اكتشاف المواهب الشابة التي تستحق أن تُنشرَ أعمالُها بينَ القرأَةِ والمثقفين، وذلك تشجيعا لهم على الاستمرارية في الكتابة الإبداع.

المحتويات

الإهداء 6
ومن أرض الخيال كانت البداية..... 7
الفصل الأول..... 9
وفي ذاك الفضاء الأزرق كانت الشرارة الأولى..... 9
"ما دمت أحلم فأنا حي.. لأن الموتى لا يحلمون". 15
الفصل الثاني..... 21
اللقاء الأول 21
الفصل الثالث 31
أرض الروح..... 31
قبل أسبوع.. 32
بعد أسبوع..... 40
الفصل الرابع 45
بوح..... 45
الفصل الخامس 75
الفصل السادس 87

رحيل..... 87
الفصل السابع..... 94
أنا التائهة في لحن صوتك 94
الفصل الثامن.....106
وجع الأب.....106
الفصل التاسع.....118
دميتي اليابانية 118
الفصل العاشر 150
محاولة عيش 150
الفصل الحادي عشر 174
لقاء الريح بالنار.....174
الفصل الثاني عشر.....192
من أحياها؟ 192

طعم قبلتها

طفلة مورسكية... شاردة في أرض الأحلام، تائهة في صوتك، تبحث عن شعاع أمل، تنسج من خيوط الشمس جناحين، لتحلق بهما نحو الحقيقة، قلبها كان مشبعا بالثأر، لكنه الآن يشعر بالسلام، أرخى يده، وسلم أمره لله وحده، فبدأ المطر يتساقط عليه بردا وسلاما... أزالت الخوف من قلبها، حتى تسمح للماء السماوي أن يغسله، من كل معتدٍ ومحتل، لكن صوتك كان لها الملاذ والأمان، كان صوت الحقيقة.

bassmabook
00212771814934
bassmabook@gmail.com